

ليلى العثمان

الحب له صوت



دار الشروق

ح. التوي

الحبَّالَهُ مُوَرِّ

الطبعة الأولى

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

جميع حقوق الطبع محفوظة

دار الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسي - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقية: شروق
تلخس: 93091 SHROK UN

بنيوت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقية: داشروق
تلخس: SHOROK 20175 LE

SHOROUK INTERNATIONAL: 316/318 REGENT ST., LONDON W1, UK. TEL.: 6372743/4

لَيْلَى الْحُتَمَان

الْحُبُّ لَهْ صَوْرُ

دار الشروق—

نظرة لها أصابع

هزّه في صمت الليل شيء فانتفض كملدوغ .. استقام في فراشه ، جالت
عيناه في الظلام المطبق على المكان فلم ير شيئاً .. تحسس جسده فلم يجد ما يشير
إلى اعتداءٍ ما .. من حشرة ! أو حيوان كتلك القطط التي تقفز على نافذته كل
مساء .

عاد وأرخى جسده الناعس على الفراش ، وتحن استقر رأسه على الوسادة
تطلع إلى الأرض حوله .. حدّق مستعيناً بكل طاقة عينيه ليصدق ما يرى .. في
البداية حسب النعاس يتلاعب بنظره فيصور له المشهد ، لكن الأمر صار
واضحاً حين امتدت يده إلى الستارة المنسدلة على النافذة التي يقبع سريره
تحتها ، سحب طرفها فتسللت أنامل رفيعة من الضوء ، ووضحت أمامه
الرؤية ..

هاهو «نعاله» القديم ، يتحرك .. يتحرك ثم يرتفع .. يرتفع .. يقترب منه ..
يقترب .. وقبل أن يغمض عينيه ، كان « النعال » يهوى على وجهه بكل عنف .
و .. غاب عن الوعي .

في الصباح ، لم يكن يتذكر شيئاً ، وكأن حُلماً عادياً قد مرّ به كباقي
الأحلام ، لكنه حين نظر إلى المرأة ليحلق ذقنه ، لمح بقعة زرقاء على صدغه
فتذكر ما حدث في الليل ، فقرر بينه وبين نفسه أن يترك « نعاله » كل ليلة داخل
الحمام .

مشى حافياً .. لسعت قدميه برودة البلاط ، لكنه احتملها ، فهي أرحم
كثير مما قد يحدث لو أنه سحب « النعال » في قدمه .

اندس في فراشه متثائباً .. مرتاحاً .. وكوم الغطاء الصوفى على جسده وتذكر
شيئاً .. فسحب اللحاف حتى ستر به كل وجهه العريض - وكان يكره هذه
الطريقة - ثم استسلم للنوم .

فجأة !

صحا على صوت باب يصطفق .. تذكر أنه لم يوصد باب الحمام .. لعن
غباؤه .. وما ان تهيأ للنهوض .. حتى رآه في العتمة آتياً كوجه بومة .. مسرعاً
نحوه ...

هو ...

نعاله ! يطير إليه .

هرب إلى الفراش ثانية .. سحب اللحاف .. قبل أن يتمكن من إخفاء
وجهه . كان « النعال » قد صفعه بحدة . و .. ارتجف حتى الإغماء .
لا وسيلة إلا الهرب !

قرر .. ألا ينام في بيته ، ذهب إلى صديق يكره فيه برودة أعصابه ... ففكر
أن يحكى له الحكاية ، لكنه كان متأكداً من أن هذا الصديق البارد سينفجر
كالبارود بضحك متواصل ويؤكد له بأنه مجنون !

كتم أمره داخل صدره ، واختلق حجة لصديقه :
- أضعت مفتاح البيت .. قلت لمن ألبأ في هذا الليل الموحش .. فلم أجد
إلا بابك ..

رحب به الصديق ببروده المعتاد :

- البيت بيتك .

وانشقت قناة راحة .. الليلة سينام نوماً وردياً بعد ليلتين متواصلتين
يخ « نعاله » فيها وجهه ، وعباً نفسه قلقاً لأحتمل .
في غرفة صديقه سرير خشبي ضيق لا يكاد يحمل جسمه .. لكنه أحسَّ به
حفاً معشياً تتماوج نسيماته حوله ، فتحرك أطياف أحلام وردية .

الليلة .. لا قلق ! ولا أرق ! ولا « نعال » ... استسلم لنوم عذب
حر في البداية شخيراً جعل الصديق يقطع رحلة نومه ليغلق عليه الغرفة وحين
سار خطوتين .. لاحظ « نعال » الرجل مقدوفاً في الصالة .. فانحنى وحمله إلى
حيث ينام الرجل ، ثم أغلق الباب بالهدوء نفسه الذي فتحه به والذي لا تكاد
تسمعه حتى حشرات الليل .

تقلب على السرير الضيق وقبل أن يستدير إلى الناحية الأخرى لمح شيئاً
ينحرك في الظلام ، ولأنه كان متأكداً من أن « نعاله » خارج الغرفة ، فقد فتح
عينيه على اتساعها ليتأكد من هذا الشيء المتحرك .. لكنه ما كاد يستقر بنظرته
حتى صفعه « النعال » صفعه جامدة ، فلم يقاوم صرخة الرعب التي صدرت
فشقت سكون الليل في أذن الصديق الذي جاء مهرولاً ... مستفسراً

في الصباح .. قرر أن يقصد طبيباً .. ولولا ثقته بأن هذا الطبيب لن يوح
بأمره .. لما فكر بأن يدق بابه ، فهو يكره الأطباء ، يكره التعامل مع من
يؤكدون حرصهم على سر مهنتهم ، لكنهم ينسون القسم الذي أدّوه ، فما أن
يجمعوا في بيت أحد أصدقائهم ، أو في إحدى الديوانيات ، أو الزيارات
الخاصة .. حتى يبدأوا بالتندر بحكايات المرضى ، وأحوالهم النفسية ،
ويقهقهون كأنهم بسرد حكايات الناس ومعالجتها قد أحرزوا انتصاراً يقرب لهم
من يسمعونهم ، لذلك كره الوقوف على أبواب عياداتهم للعلاج أو الاستشارة
لكن الأمر يختلف اليوم ، فالوضع ليس وضعاً صحياً فيسكت عليه ، هنا

حقيقة ترصده كل ليلة .. تقض راحته ، تنفره من فراشه الذى لا يأوى إليه إلا آخر الليل منهكاً ، فلا يأتيه النعاس بسهولة ... فهو يبقى ساعات طويلة يستعرض نهاره الطويل ، يستعيد كل أحداثه ، كل لحظاته ، كل الوجوه الأصدقاء ، الغرباء ، حتى أولئك الذين يملكون أن يقولوا له افعل .. ولا تفعل . أولئك الذين عرضت مؤخراتهم من طول استقرارها على المقاعد الوثيرة فى وظائف لا يحملون مايؤهلهم لسد فراغاتها إلا ما حصلوا عليه من أوراق التوصية والوساطة أو شهادات لم يحصلوا عليها بعرق الجبين بل بالعرق المبللة به الهدايا أو الأوراق النقدية المتراسة .

إلا هو ... المسكين .. المظلوم .. لماذا لا تكون له وظيفة كبيرة .. ومكتب فخم .. وسكرتارية ! وموظفون يأمرهم .. فيأتمرون .. وفراشون يصرخ فى وجوههم فيرتعدون ، ومراجعون يأتون .. ويذهبون .. ثم يأتون .. ويذهبون .. وهو يتسلى بلهفتهم على إنجاز معاملاتهم ، فيؤخرها يوماً بعد يوم .. حتى يلمح ذل التسول فى عيون أصحابها .. عندها يتعطف ويتكرم عليهم بإنجازها هه !

حلم .. حلم أن يحققوا له ما يستحقه من مكانة ، فكل مسئول يحذفه إلى مسئول آخر وكل وظيفة تلفظه إلى وظيفة إما أدنى منها أو أعلى لكنه سرعان ما يتدحرج إلى .. لا شيء !

كره الناس ، كره العمل ، كره كل الوجوه السعيدة ، كره النساء . حتى تصور أن كل امرأة جميلة مجرد بومة ، وكل امرأة ناجحة هي منافس خطير لقدراته ، وإبداعاته التى يظنها كامنة فى عقله .. ولم يكتشفها أحد بعد ! كره ظهور الناس التى تسير أمامه فلا تراه .. حتى أنه تمنى لو تصير عيون الناس فى ظهورهم ! أو كعيون الذباب المتحركة لتلمحه فتفسح له الطريق حتى وإن لم

تكن طريقاً ضيقة . كل هذا وغيره يعانیه في نهاره ! وفي الليل .. يأتي هذا « النعال » اللعين ليفسد عليه متعة النوم .. مما جعله يتنازل .. ويذهب إلى الطبيب الذي أصبحت استشارته ضرورية .. بل .. وملحة .

كان الطبيب ينظر إليه باشفاق واضح - يبدو أنه مريض فعلاً ، رغم أنه لم يعلن للطبيب عن حالة مرضية - تابع سماع قصته . كان يحسه حزيناً وهو يتحدث والعياء اللاهث بادٍ في صوته .. متألماً وهو يصور إحساسه بهذا الذل الذي يلقاه كل ليلة تحت جلدة « نعاله » . ويبدو يائساً .. من حلٍ سريع ينقذه .

تابعه الطبيب بارتياح جعله يسترسل في وصف حالته ، وقبل أن يوجه له سؤالاً كان يكمل ، وكأنه قرأ أفكار الطبيب :
- لقد فعلت كل شيء من أجل أن أتجنب هذا الغزو الليلي .. آخر مرة - التي قررت أن آتيك إثرها طالباً العون - كنت قد وضعت « نعالى » في خزانة حديدية وأغلقت عليه بالمفتاح .

- هه .. وأظنك نمت مرتاحاً تلك الليلة !
- أبداً ... أبداً يا دكتور .. - ونفخ - ما إن غزا النعاس أجفاني .. حتى فاجأني كلها بهجوم كاسح وتناوبت في ضربي حتى تجرح وجهي . أنظر وحرك وجهه العريض يمنة ويسرة أمام وجه الطبيب الذي رفع حاجبيه مستغرياً :

- غريب ! كل الأحذية ؟ كيف ؟
- لا أدري ! في الصباح فوجئت بباب الدولاب مكسوراً .. وكانت الأحذية بداخله متراكمة وكأنها لم تغادر مكانها ، ولم تفعل شيئاً بوجهي .
سأله الطبيب ، وقد بدا الاهتمام واضحاً في سؤاله :

- هل تقسو على أحذيتك في النهار حتى تتكاتف عليك بالليل ؟
قال بصوت لا يخلو من انفعال :

- أبداً يا دكتور .. أنا لا أقسو عليها .. أنا فقط أستخدمها لضرب ظهور
الناس .

ارتفع حاجبا الطبيب ، لاح استغراب :

- تضرب ظهور الناس ؟
هز رأسه :

- نعم .. نعم ..

- ولكن ! لماذا؟؟

- لا أدري يا دكتور .. هذا شعور يفاجئني كلما رأيت إنساناً يسير ويسبقني
بخطواته .. فأنفعل .. وأثور .. حتى الذرات الصغيرة في نفسى تثور ثورة
العاصفة .. أحس بمن يسير أمامى وكأنه يتحدانى سعيداً وهو يخلفنى وراءه
أحمل كرشى الثقيل وأسير بطيئاً .. فلا أعى نفسى إلا ويندى تحمل « النعال » أو
الحذاء وتهوى بها على ظهر الذى أمامى ..
سأل الطبيب وهو لا يكاد يصدق :

- والناس؟؟ الناس ما ردّة الفعل لديهم؟؟
مط عنقه التخين كعنتق جاموسة ، أوسع من عقدة « الكرافثة » ذات
الألوان الصارخة .

- الناس يا دكتور تتفاوت ردود فعلهم . بعضهم يلتفت وقد صعقته
الفعلة .. ولا يجرؤ حتى على فتح فمه وكأنه أمام مجنون يخشى أن يدخل معه فى
معركة غير متكافئة ، وبعضهم يطرني بوابل من السباب والشتائم اللاذعة التى
تجعلنى أقف أمامها صامتاً لا أدري كيف أبرر له فعلتى .. ونفر آخر ينهار على

بالضرب ، ويبصق فى وجهى .

- وأنت .. هل ترضى بالإهانة ؟

سأله الطبيب وهو متلهف لمعرفة الإجابة !

- لا أهتم يا دكتور .. بالعكس ، أنا أسعد حين أثير اشمئزاز الناس
وغضبهم . مالا يرضينى فقط هو الرد الذى يجلدنى ، أحس سياطه تلهب بدنى
فتمزقه . وأقف حياله مقهوراً آكل نفسى .. وتأكلنى نفسى .

وباهتة تساءل الطبيب :

- ترى ! أى الردود يفعل بك هذا ؟؟

- لفظة ! - وصرّ على أسنانه بغیظ - لفظة ! تصور فقط يلتفتون .. ونظرة
احتقار كبير تطل من أعينهم .. ثم يستديرون عنى وكأننى لست إلا مجرد صرصار
أو جردٍ أو حتى بقعة تعرضوا لقرصة مفاجئة منها .. إهانة إهانة .. تندلق إلى
روحى فأكرعها مرة .

- وأنت ! بماذا تفسّر هذا الفعل منهم ؟

نحبط على طاولة الطبيب فتطايرت بضع أوراق وأهتر كوب الماء الموضوع
على طرف الطاولة فأمسك به .. بلل ريقه بقطرة منه وصرخ :
- هذا ما سيفقدنى عقلى .. لماذا لا يفعلون شيئاً ! ألا يؤلمهم الضرب ؟ .
وأكد كمن تذكر شيئاً - إننى أضرب بقسوة - ها .. ها ...

ضحك الطبيب حتى تجمع لعاب أبيض حول شفثيه ، بينما الرجل فاغرفاه
لا يشعر بشئ ولا بالذبابة التى حامت حول فمه وكادت تدلف إليه لولا أن
امتدت يد الطبيب بمطرقة النايلون وهوت بها على مكان الذبابة عند قرف شفة
الرجل .. لكن الذبابة كانت أسرع من الضربة التى هوت على وجه الرجل ، فلم
يتحرك وكأنه لم يحس بالضربة .

- هل آلتك الضربة ؟

سأله الطبيب .

- لا ..

- عجيب ! ألم تشعر بها ؟؟

- لا ..

تنهّد الطبيب . قال بصوت خفيض كأنه يحدث نفسه :

- كثير من الضرب لا يؤلم .. ولا يؤثر ولكن !

قاطعته المريض :

- ولكن .. تلك النظرات التي تفوح احتقاراً

هز الطبيب رأسه مؤكداً :

- أجل . هي التي تؤلمك . رب نظرة أبلغ من كلام . أبلغ من !

أجهش المريض كأنه ما عرف البكاء أبداً .. ارتج شحم ج

تراقصت زوائد خاصرته ، وثديه اللذين يشبهان ثديي مريض داء

تلك اللحظة .. دخل الفراش غرفة الطبيب .. وقدم له لفافة

جريدة .. حين فتحها الطبيب أمام عين المريض كان الفراش يش

- أحد المرضى الذين غادروا المستشفى ترك نعاله هذا على ال

ابتسم الطبيب . ركّز نظره على وجه المريض السمين وتمتم

- لعله مريض أراد التخلص من مرضه

بعض الأشياء لا تنتظر

الصيف قاس .. الوجوه متعبة ، بعضها عليه آثار الأرق .. وبعضها
النكد .. وعلى بعضها الآخر يبدو تعب الحياة وقرف منها ...
الطابور يمتد طويلاً يتعرج حسب المكان .. يعلو ويهبط .. حسب
الأطوال ، ورائحة « البمبر » تفوح من شجرة قريبة .. ثمرة ذهبية تتزعزع بين
الأوراق المتهدلة الكسول ...

وهناك ... هي تستلقي ..

ينزع في صدرها الورم .. ويأتي قرار الأطباء :

— لقد تفشى المرض الخبيث .. ولا بد أن يبتز الثديان .

وحالة الفزع امتدت من صدر زوجها إلى جرس الهاتف الذي زعق صوته
مستغيثاً :

— أرجوك ... أريد بطاقة زيارة مستعجلة ! عيلة تموت .. أكل صدره

الداء اللعين .. شهور وأنا أحاول ... ومحاولاتي تُرفض ... عيلة وحيدة
أمها ... و ...

أجهش !

لم تكن أول مرة أسمع فيها رجلاً يجهش بالبكاء ، لكن هذا الجهشان
مذّب .. يخرق الصدر سهماً ويجعل الكلمات تموت في الحلق ؟
ماذا أقول له ؟؟

كيف أواسيه؟؟

وما الذى أستطيع أن أفعل من أجله الآن أسارع غداً إلى إدارة
الجوازات .. لأعمل بطاقة زيارة لحماته التى صارت فى هذه اللحظة حاجة
ملحة .. تقف مع ابنتها فى محنة العذاب ! وتمضى الليل مع الصغار .
لم يكن المسئول الذى أعرفه فى مكتبه .. لقد خرج لأمر هام !

- والمسئول الثانى ؟

- سافر !

يأتى الجواب ذابحاً صبرى ..

ما العمل؟؟

يهز الفراش يده أن لا حول ولا قوة وهو يقول :

- ستضطرين للوقوف فى هذا الطابور !

والتفت !

طابور هذا أم ثعبان عرّق يمزّقه الانتظار واللهفة والرغبة أن يرفض الطلب
وتلقى الأوراق فى وجه صاحبها الطالب؟؟

- طابور؟؟

شهقت !!

ما اعتدت أن أقف فى طوابير ! ذاك الدلال الذى تعودته كل مرة .. غير
متوفر اليوم ... المسئولون من الأصدقاء لا يعلمون أننى اليوم سأنحدر إلى طبقة
الكادحين .. وأقف فى الطابور ..

فرض .. لابد منه .. من أجل بكاء الرجل المسكين الذى سرى الداء فى
صدر رقيقة عمره ... لابد من الوقوف ، هى على أية حال تجربة أحسن بها
معاناة هؤلاء المساكين الذين يقفون كل يوم فى طوابير ... الذين لا يعرفون

مستولين مثلى .. ولا يتدللون كل يوم مثلى !
سرت نحو الطابور ... اتخذت مكانى فى ذيله ! حين استقرت قدماى التفت
نحو غرفة المسئول الموصد بابها ...

هه !!

أنا اليوم .. سأعتمد على نفسى !! ما حاجتى لخدمة مسئول .. أو صديق !
إن الوقوف ومشاركة الناس غير المدللين متعة ! والتزول أحيانا من أبراجنا العالية
يجعلنا نرى عن كثب خرائط الوجوه المتعبة فنشعر بمعاناتها التى لا نعرفها !
تسرية عن النفس التى ربض القهر داخلها !!

يبطء يتحرك الصف !

أنهار العرق تنهمر من جسدى ! أحسها تنزلق بين ساقى المتعبتين ولعلها
كذلك مع الآخرين !

عدوى تعب الوجوه التى سبقتنى ، ونكدها .. وقرفها .. تنتقل إلى وجهى
مضاعفة ! فأنا ما تعودت هذا الهوان اليومى !! أنا المدللة التى تسير أمورها دائما
على مايرام !!

الشباك يغلق !

الموظف يعتذر !

أنظر إلى الساعة التى التصقت بلحم يدى ..

الواحدة والربع !!

انتهى الدوام .

الغد يوم آخر ...

رحلة ثانية ، طريق المطار المخيف .. قد تأتى سيارة طائشة ! سائقها إما
شاب مدلل لا يحمل رخصة قيادة ، أو رجل طفح كيل الشراب إلى دماغه

فأفقده السيطرة على نفسه .. هو طريق الموت اليوميّ ...

وهي !!

هناك على سرير في المستشفى ... ترقد ، تتألم ، بانتظار العملية التي لن تتم
حتى تنتهى بطاقة الزيارة ، وعندها ... يُبرقُ للأم أن تأتي ! وينتظر الزوج في
المطار .. حاملاً الورقة الصفراء ... جواز الدخول ... لا بد أن أسرع .. قبل أن
يخرج المسئول ! فيُخرج الطاهور لى لسانه ثانية ! ويمتص نهاري ! ويلفظني
كغيري من المساكين إلى يوم آخر !
فجأة تذكرت !

اليوم موعد هام ... ضيوف بانتظاري في الاستديو . يوم آخر يضيع !
وبطاقة الزيارة ستتأخر .. و ... غيرت سيري .

* * *

غدٌ ثالث ..

وبطاقة الزيارة في يدي جناح حمامة ، سيحمل الأم سيفرح قلب عبلة حين
ترى وجه أمها الحاني قرب سرير المرض ! والموت المرتقب .. وسترتاح في إقامتها
وصدر أمها مرقد وثير لأطفالها .
البطاقة في يدي فرحة بها .. فرحة بالدلال الذي سبقها ... وعتب
المسئول :

- كيف تقفين في الطابور؟؟

- بطاقة مستعجلة ! قلت لعل الطابور ينهيها .

- كان يجب أن ترجعي ، ولا تقفي !

- رجعت بعد أن أغلق شبك الموظف الأمل في وجهي . هأناذي أعود ...

* * *

فنجان قهوة ... كرسى وثير... وجه مسئول لطيف ! أليف ! متعاون !
وقلمه الزاهى يخط توقيعه الأنيق ... ، وترفع الورقة بيد الفراش إلى حيث
الأختام ، وبعدها إلى الخطاط ... ومن ثم تعود إلى عروساً متأهبة .. يدمغها
المسئول بتوقيع جديد كعريس يدمغ عروسه إلى الأبد .
البطاقة فى يدى !

جواز مرور متلهف بانتظار صاحبه .. والفرحة ... وراحة الضمير .
عبلة ستري أمها القادمة ! فقد سهل الله الأمور وإن كانت البطاقة قد
تأخرت يومين ! فلا يهم ... « كل تأخيرة ... فيها خيرة » .

* * *

وجعٌ شق صدرى !!
وضعت البطاقة قرب جهاز الهاتف .. سأتصل بزوج عبلة .. سأبشره أن
البطاقة معى ! وليبرق لحماته ...
وجعٌ شلَّ يدى !!!
هناك ورقة موضوعة فوق الجهاز كتبها زوجى قبل أن يغادر فى الصباح ...
تحسست الورقة بيدي ، أحسست صدر عبلة يشكرنى قبل أن يفارق هذا
العالم .

الحب له صور

بينك وبينه أكاد أضيع .. أنغمس في أرض المآهات .. هو يملك ما يجعلني سعيدة ، مستمتعة . وأنت تملك الوعود .. الكبرى .. في أن أكون بعد ذلك أكثر راحة .. وأشد اطمئناناً وألقى كل ماتشيه نفسي . بينكما أتأرجح .. والمسافة بعيدة .. بعيدة .. تبدأ من ابتسامة عينيه .. ولا تنتهى .

عيناه اللتان أرى فيهما غزارة الشوق . وإغراءً بالاقتراب ، والولوج إلى حلم أحمر أخرج منه أكثر نضارة وأبهج وجهاً ..
وأنت ! لا أكاد أراك أو ألحك إلا في مخيلتي التي طالما احتارت كيف تصورك : رجلاً عادياً ؟ أم طيفاً ؟ أو غيمة تحمل ملايين القطرات للعطاشى والمظلومين .

إن فكرت به .. أحن للفرح .. وإن فكرت بك تلازمني غصة تتحول إلى بكاء يشبه بكاء المجرم عند اكتشاف جريمته .
إن فرحت معه خشيت على فرحى .. وإن بكيت عندك ارتحت من أثقالى .
أنت وهو .. تشداننى إليكما .. وأكاد فى هذا الفضاء الشاسع أن أفقد نفسى .. ويختل توازن دماغى .. فلا أحكم على ذاتى إن كانت تريد هذا .. أو ذاك .. فكيف السبيل لإرضاء أيتكما ؟ وكل واحدٍ منكما يتصور أننى أخونه مع الآخر ؟

وأنا .. - أقولها بصدق - أحبكما أنتم الاثنين .. قلبي يتسع لكما أنتم الاثنين .. وإن تفاوت حجم المكان الذى يحتله أحكما .. عن الآخر .. قلبي يتسع .. وقلب كل امرأة كذلك .. فمن قال إننا لسنا بقادرات على أن نحب أكثر من واحد فى مرة واحدة ؟

الحب له صور عديدة .. ولكل حب كيانه الخاص ، وخصوصياته وأشياؤه الطفلة التى تنمو فى داخلنا فتشير ألحانها الخاصة .. وعواصفها الخاصة وتأخذ وقتها كاملاً .

أنتم الاثنين أحبكما .. ولا شك فى أنكما أيضاً تحبانى .. وإلا لما حاول أحكما أن يشدنى من الآخر .. أو ثارت غيرة من الآخر .. أو حتى لعن الآخر سره .

لكننى أعترف أنه يجذبني إليه .. أكثر منك ، وأنه يحرضني ضدك .. حين سألني عنك ؟ ومن تكون ! فإن غموضك الذى يحيط بك يحيرني فأميل إلى صديقه بأنك مخادع . أو لا شيء البتة .. وأنت مسئول عن هذا التذبذب الذى أعانيه .

أعترف .. أننى أنساق إليه ، وأنساك .. لكننى حين أتفرغ لوحدي أتذكرك .. أفتح رسائلك العديدة المليئة بالحكم .. فأرتعش .. ويصيبني الدوار .. وأعود إليك .. تماماً مثل هذه المرة .. وهأنذا آتيك طالبة عفوك عن هذا الهجر الطويل .. لكننى لا أراك تفتح ذراعيك .. وتستقبلني بشوق ومحبة إنك تصرخ بى :

- أنت تأتين بخداعك .. لست نقية بعد !

- أعدك بأننى سأكون .

لكننى أحس بيدك الرهيبة تمتد إلى وجهي :

- إياك : إياك أن تعدى بشيء .

وتصمت ..

وأصمت ..

تمتد غابة السكون بيننا ثم يفاجئني صوتك الراعد

- هل أحدثك بماذا تفكرين الآن وأنت معي ؟

أتحسّس صدري .. إذن .. أنت تعرف ما بداخله ، تقرأ عباراته المنظومة
فكيف تقدر أن تحصر كل الأشياء ؟

أجيبك :

- بك .. أفكر بك أنت .. أنت وحدك .

تقذف الصرخة في وجهي :

- كاذبة ؟

أتوسل :

- أرجوك صدقي .. فقد صرت مشكلتي .. أنت أنا .. تريدني لك

وحدك .. أفكر بك وحدك وهأنذا أفعل !

لكنك تؤكد بما يشبه الحزم :

- بل هو .. تفكرين به هو حتى وأنت معي .. أنت الآن تشتهين لو كانت

عينك سابحتين في عينيه .. في غرفة وحدكما .. تشربان نخب الحب المثلج حتى

آخره .. يذيقك انتعاش العشق حتى تصبحي أرنبه بحاجة إلى الدفء ..

فيحملك إلى السرير طرية كثمرة استوت على غصنها فتهاوت ، تعيشين معه

اللحظة بكل جنونها وتنسين أنني هنا .

- ولكن ! أليس من حق أن أعيش لحظة حب معه ؟

- وأنا ؟ متى تعطيني لحظة الحب الذي تعطينه له ؟ ومتى تفين بوعده

- إننى هنا .. جئتك الآن .. وأنت ترفضنى ! تهزأ بى .
- جئت لأنك تحسن بالوحدة .
- أنت عودتنى أن ألبأ إليك لحظة ضعفى .
- إذن جئت لتحتفى بصدري لفترة .. وحين يعود سرعان ما يتحول
صدري تحت رأسك إلى وسائد شوك .. تهجرينها إليه .. تعودين إليه .. قوية
وتنسين أننى كنت مصدر القوة .
- أبداً .. أبداً .. إن لك وقتك مثلاً له وقته
- مخادعة ..
- أنت تسد الباب فى وجهى .
- لم أعود أن أسد الباب .. بابى يتسع ، لكننى أريد وجهك صافياً نقياً ..
صادقاً .. فأنا أكره الوجوه المزيفة
- أعدك ..
- أعد ..
لكنك ترفض الوعد .. تماماً ككل مرة وتقول :
- لا تعدى بشيء .. اذهبي .. ولكن تذكرى أننى لن أفتح ذراعى إلا إذا
عدت مغسولة من حبه ..
أعود بنجيتى .. أفتح الباب بكسل .. تلفحنى رائحة البيت فأنتعش وأسحب
نفساً أضم فيه رائحة كل الانحاء .. فأدخلها إلى صدري سبعة
أسمعه
رنين الهاتف موسيقى عذبة ..
هو .. لا بد أنه هو .. لقد عاد أخيراً .
أسرع .. تأكل قدماي درجات السلم .. يتراكم فرح إلى أعضائي .. فرح

الأرض يتدفق عليها سيل المطر بعد جوع .. وعطش .. وقبل أن يكتمل سيل
الحياة في عروقي .. أتذكر وعدى ..

لا .. لن أرفع السماء .. ولن أحدثه .. ولن أقابله .. النداءات في داخلي
تتلاحق .. كرنين الهاتف .. شيء يشدني .. وآخر يبعدني .. لقد وعدت الآخر
ولابد أن أفي بوعدى .. سأكون قوية وأتحدى الهاتف

ولكن : هل أستطيع ؟؟

الحياة جميلة معه .. وصوتها صдах مفر ..

والإقبال عليها حق من حقوقى .. فلست إلا كائناتاً حياً .. تهفو نفسه لمتطلبات
السعادة ..

وأنا .. ألقاها معه .. فى عينيه .. بين يديه .. على صدره .. لكن الآخر
أريده أيضاً .. أحتاج إليه .. فعنده أفرج الكرب عن النفس ويتسع صدرى
بعد ضيق .. فهل أنسى لحظات الراحة معه ؟؟

الرنين يتلاحق : - بكاء طفل فرح نسيته أمه فى الظلام .. لكننى لن أرفع
السماعة !

لا بد أن أشغل نفسى .. أمسك بكتاب .. أقلب صفحاته .. لكننى سرعان ما
أقذفه إلى الطاولة القريبة فيلتوى غلافه .. أشعل سيجارة .. وثانية .. وأتابع
انطلاق الدخان من رأس السيجارة راقصاً إلى أعلى .. وراقصة يتمدد جسدها
ويتلوى أمامى على الشاشة الفضية .. أتأملها بقرب ، ثمّة تعاريج فى صدرها
تنبئ عن الأكف التى امتدت وعبثت بالثمرة .. وحين رفعت ذراعها إلى
أعلى ، خطر ببالي أن أمسك سيجارتى وأغرسها فى إبطها فأشوه مساحتها حتى
لاتفكر بعد اليوم أن تتعري هكذا وهى ترقص ..

الرنين يعود مُلحاً .. قاسياً ، اللهفة تنقلني من منظر الراقصة القبيح . إلى
الهاتف القابع في زاوية الغرفة .

أوشك أن أتحرك .. تدفعني رغبتى لرؤية الرجل في هذا المساء الحزين بعد
شوق الأيام الماضية ، لكننى أتذكر لقائى بالآخر .. ووعدى له .

— لن أرفع الهاتف ، ولن أراه بعد اليوم .. وسأعود إلى الآخر مخلصه نقيه .
أعود إلى الصمت .. للتأمل في لا شيء مما حولى .. أقوم إلى خزانتي
المهجورة .. أنبشها .. أبحث عن قميص تقطعت أزراره .. أو ذيل فستان فكت
خياطته .. قد أجده فأنشغل .. فأنسى نداء الهاتف !

لكنى ملابسى كلها سليمة .. آه . لو أبكى .. لو يسيل عذاب صراعاتى . لو
أتشترق داخل لحظتى .. ويطوينى الزمن .. لو أنسى الاثنين ، أهجرهما ..
وأبحث عن ثالث يرتضى صراعاتى .. لو أستقر على أحدهما .. فلا يعذبني هذا
الاهتزاز المتواصل ..

أرفض كسلى ..
أقوم مرة واحدة .. أقرر أن أستحم ..
لا ...

لن أفعل ! فسيظل شعري المبلل مشكلتي الليلة .. آه ما أكثر المشاكل جسد
ملئ كجسد صرصار تجمع النمل عليه ليشده إلى بيته
يجب أن أستحم ، أن أغتسل .. أن أعود للآخر ، صافية .. نقيه .. كما
..

أدلف إلى الحوض أفتح صنوبر الماء .. يتهاوى بارداً .. أتذكر
— هذا السخان اللعين كان من المفروض أن أستدعى أحداً لإصلاحه لكننى

نسيت ! وما أكثر ما أنسى .. بات على أن أعلق في كل ركن من أركان البيت
مفكرة أسجل فيها ما أريد .

لن أستطيع الاستحمام .. ولن أكون صافية هذه الليلة . لماذا تعاندني
الأشياء كلما فكرت أن أعود إليه ؟ لا فائدة .. ليس أمامي سوى الهاتف .. أعيد
ملابسى إلى جسدى العارى .. لم أفكر حتى بارتداء سواها ، وأركض نحو
الهاتف المخدول المنتظر .. تدير أصابعى الأرقام الستة ... أسمع الجرس يدق ..
قلبي يدق أيضاً ..

هل سيرد؟؟ ليته لا يرد .. ليته يصاب بالصمم كى لا يرد
بل .. ليته يسمع ! ويرد .. وينقذنى من حيرة اللحظة . الجرس يتوقف ..
صوته يأتى :

- أهلا حبيبتي ..

أضحك ..

- أهلاً بك أيها الشيطان .. اللعين .. كلما قررت مخاصمتك تأتى
يشمت صوته

- وأنتصر : أليس كذلك ؟

وأشحن صوتى بتحد واضح

- أين غبت كل هذه المدة ؟

- فى مكان جميل .

- وبناته أيضاً جميلات !

يتحدانى :

- بالطبع .. فوق ما تتصورين .

- أيها الخائن : أخلص لك فتخوننى .. سيأتى يوم وتخسرنى .. أنت لا تليق بى

تستطيل ضحكته .. حتى أخالها تصل ما بيني وبينه
- أما هو .. فيليق بك .. لهذا ينفر منك كلما ذهبت إليه
أقول باستسلام ..

- معه حق : كيف يرضى بي وهو يعلم أنني أخونه معك ؟
- تسمين حبي خيانة ؟

- هو يعتبرها كذلك .. خاصة أنني لا أعطيه .. بقدر ما أعطيك
يصمت .. ثم يعاود الحديث قائلاً

- اسمعي .. يخطر لي سؤال هام .. لماذا لا يقتلك إنه على حق كما تقولين .. وهو
قوى .. فلماذا لا ...
- اخرس !

أصرخ به .. ألقى بالسماغة ، ينقطع جبل الوصل الممتد .. أشعر ببعض
الراحة .. لكنها سرعان ما تبدد .. هل أستحم بالماء البارد وأذهب إلى الآخر
صافية ؟ هل سيقبلني ؟؟
هل سيربحني حين يضمني إليه إلى الأبد .. ويخلصني من هذا الصراع
الطويل ؟؟

رأسي يتهاوى بين كفى .. ولا شيء غير البكاء .. الوقت يمضي .. يكاد يأكل
ليلة أتمناها بعد هذا الفراق ، لكن الدنيا تأتي .. أبداً هي ملحاح عطوف .. إذا
استدرنا عنها لحقت بنا .. أشرقت بوجهها ، ابتسمت وقالت :
- أنا هنا مشرقة دائماً حتى لا يستدير أحدكم عني
ومعه تأتي الحياة !!

جرس الباب .. نداء ملهوف .. وهمس مشتاق : و .. يدخل .. أراه
أمامي .. نخلة باسقة حاملة ثمرها ..

هل كان على أن أفرح؟؟ أم أن أخشى لحظة اللقاء ؟
صوتي ينبرى من حنجرتي محتداً :
- لماذا جئت ؟

بهدوئه المعتاد يرد :
- جاء بي شوقى ..

أرفع كلتا يديّ .. أهوى بهما على صدره العريض :
- لعنة الله عليك .. وعلى شوقك لست أريدك بعد اليوم .. أريد أن أستحم
أن أتطهر .. وأعود للآخر .. وأهجرك إلى الأبد !
يتسم بحبث :

- أنت بحاجة للاستحمام فعلاً .. فهذه ليلة لقاء .
- لا .. لن أستحم من أجلك أنت !

يتعد إلى المطبخ .. يعود وفي يده كأسان .. لأول مرة ألاحظ لون الثلج
أراه أكثر بياضاً من أية مرة سبقت
هل تختلف الألوان ؟ أم أن نظرتنا للأشياء هي التي تختلف باختلاف
لحظاتها ؟

يمد يده بعد أن يصب السائل .. ويسيح الثلج في الكأس
- اشربي .. هذا يريحك .
أبعد الكأس :
- لا .. لا أريد .

يضع الكأسين : يقترب .. يحتوينى .
- أتلذذ باحتوائه .. آه .. لو أبكى الآن .. فتغسلنى سحائب دموعى .. فى
رأسى دائرة متشابكة من الأسئلة :

- لماذا نسيت السخان ؟ ولماذا رفعت الهاتف وطلبتة ؟؟ لماذا جاء هذا الرجل ؟
لماذا وعدت الآخر ؟؟ ولماذا لا أرفضه الآن وأغتسل بالماء البارد حتى تستيقظ
كل شعرة في جسدى فيسرى عليها الماء .. يطهرها .. فأعود إلى الآخر نقية ؟؟
ولكن ! ماذا لو أيقظ الماء البارد فى الصدر أمومته ؟؟
لا !

لن أسحب نفسى ..
تأتى الكأس .

رأسى على صدره ... أتيقظ .. قبل أن ترتفع الكأس إلى فى .. أرتعش
رعشة مجنونة .. أرتفع عن المقعد .. أبتعد .. أمسك بالكأس ... أصرخ
- لا .. لن أشرب .. بل سوف أستحم الآن فوراً .

وتنصب الكأس على رأسى .. فتتسرب القطرات الثلجة بين خصلات
شعرى .. ويتهاوى الثلج على سجاد الغرفة

كانت الدهشة تسكن وجه الرجل : عيناي تتابعان قطعة الثلج .. تذوب
وتذوب .. الأشياء كلها أمام عيني تكاد تذوب .. ليتنى أصبح ثلجة . ليتنى
أكون قطرة ماء .. تجف .. حين تلامسها الشمس . ليتنى أصير نسياً منسياً
فى لحظتى العنيفة يأتى صوت الآخر جباراً
- لا تستعجلي .. إنها لحظة انفعال .

- إنها لحظة الصدق !

- لن تستحمى الليلة .. وستطلبين كأساً أخرى
- ذلك لأستحم بها وأصفو .

- بل ليرتد انتعاشك وعندها ستهمسين له : « يا حبيبى .. أدفئنى .. لقد جمّد
الثلج أطرافى » .

- لا .. لا .. لا ..

أصرخ فيه دون أن أراه
- أنت تحرضني على البقاء معه

- سيجرك إلى السرير

- اسكت ! أنت تغريني بالخيانة ثم تلومني

- الطريقان أمامك

- وأنا سأختار ..

- وقفك ستطول .. وسيمل الرجل منك .. ويمشي

- سأجئ إليك .

- الدرب سيطول

- سأقطعه

- وقد يقطعك فتعودين

- مدّ لي يدك .. ساعدني

- لكن يده ممدودة لا تزال .. حاملة الكأس المثلجة

أنتم

أنتم الاثنان .. تمدان لي اليد .. تارة قاسية .. وأخرى حنوناً كصدر الأم
وأنا .. في المفترق الشائك .. أقف .. الثلج تحت أقدامي .. يذوب ويذوب ...
صوتي .. يذوب

الأشياء كلها تترنح أمام عيني ... تصير ثلجاً وتذوب في داخلي .. أحاسيسي
كلها تذوب ...

و

أتهاوى إلى الأرض .

وللحب صوت

حُضِن يَدَيَّ بِكِلْتَا يَدَيْهِ .. هَمَسَ :

- كل عام .. وأنت بخير...

ودغدغتنى الهمسة الذائبة .. زرعتُ عيني في لون عينيه .. هربت مني
عيناه ... لكنني طاردتهما بجوع سنواتي الماضية ... غرست كل حبي داخلها ...
حاول مرة أخرى ... لكنني بلهفة من عيوني ، اشتعلت كل عواطفى ...
تفجرت النار داخل سماء العين واغرورقت بالدمع الساخن ..
تساءلت بحزن :

- هل ما زلت تذكر؟؟

أغمض عينيه .. ابتسم .. شدّ على يدي بحنان .. بقوة ... بشوق ...
وانهمرت عليه كأني المطر ... أحزاني ... حرمانى ... خوفاً من كل شيء ...
ودموعى وكررت :

- هل مازلت تذكر؟؟

لمحت في عينيه صدقاً :

- وهل أنسى؟؟

للحب طوفان رهيب ... تستطيع الأيام أن توقفه . تصير سداً يمنع
الانفجار .. والغرق ... ولكنه في لحظة ما ينهار ويتدفق الماء ليروى كل

العطش ... وفي داخلي كانت العروق ... والفروع ... والمساحات عطشى !
ألقيت برأسي على صدره العريض .. وهمست من قلب عذابي :
- كبرنا ... وشاخت منا القلوب ..

يده داعبت شعري :

- وحدي كبرت .. أنت لا تكبرين أبداً ..

- كان يوم ميلادي ... يوم عرفتك ..

- وكان لي أيضاً .. يوم ميلاد ..

وتجىء لحظة ما بعد الانفجار .. الطوفان .. أنسى كل ما حولى ... وأنسى

حتى نفسي .. أنسى كم من سنوات الهجر مرت .. ارتيمت على صدره ..

عانقته .. وزعت شوقي على كل أنحائه ... ودفنت أنفي داخل زواياه .. لطالما

داعبت هذا الصدر .. وعابثته .. لطالما تمرغ شعري على عُنْيه .. ودفنته ..

دلكته بيدي .. أنعشت فيه مكنونات كانت كالكثر المحبأ عن عيون

الساحرات .. والعاشقات .. وكل النساء .. كان ذلك في الماضي ... ولكن؟؟

هل أجزؤ اليوم ???

بل ... لقد جرؤت : ولكن : كيف ...

تموت التساؤلات حين ينفجر طوفان الصمت ... وينهمر العشق ليروى كل

الأعشاب الميتة ... رغم الأميال التي أحسستها تفصلني عنه .. لا بل تفصله

عني .. فهو لا يزال داخل روحي .. رقد صامتا .. بيدي أهدهد صورته لتهدأ

وتصبر ... وكنت أصبر نفسي - بانتظار عودة الروح إلى الجسد ...

أنا .. ما زلت أحبه ... رغم كل سنوات البعد .. وهل كان بمقدوري أن

أنسى؟؟

الصورة أمامي تتابع .. شعره صار مزروعاً بالذكريات .. كل شعرة بيضاء

تحمل رائحة عطري .. وطعم شفتي .. وفي عينيه ما زلت أرى صورتي .. هاتين
العينين اللتين كم هربتا من بحر عاصف يتلاطم حول أيامي ... لكنهما عادتا ..
وزرعتاني في أحضانها ... أرتوى ... ويا لزمان الارتواء ... الذي كان ...
انفصلت يدانا ..

جلس مكانه ...

جلست أمامه .. عيناي تمتلئان . ترغبان في مواصلة حذف الحزن الكبير
الذي ملأهما طوال سنوات الهجر ... لكنني أشفقت عليه .. قلت شاكرة :
- سعيدة أنا أنك مازلت تذكر .. هذا يفرحني .

لبس نظارته .. تأملني ... كبرتُ أمامه ... تفتحت مسامات وجهي ...
أينعت رُماناً .. وتفاحاً .. وفرحاً .. وفتحت في ذاكرتي كل الصور .
صمتنا ...

والذكريات بصورها تتلاحق ... وتقف عند صورة :

- سنلتقي ذات يوم ..

- متى ؟ طال الانتظار ...

- سأسافر ..

- سألحق بك هناك ..

- سأنتظرك ..

- سوف أعوضك سنوات القهر ... سأعطيك كل ماتشتهى ..

- يبدو أنك تعلمت فناً جديداً .. صناعة الأحلام ..

- جدير بنا أن نصنع الأحلام .. لنحققها .

ويبقى الوعد .. قصيدة حب ... كنت أكتب قوافيها بشغف . وأتلوها

المرّة .. تلو الألف .. بانتظار يوم .. تتحقق فيه .. ويتم اللقاء .

دس قدميه داخل النعل ... فتح الباب الذي طرقتُه يد عدائيهِ .. أطل وجهه
عامل الفندق ..
- من فضلك .. ممنوع استقبال النساء داخل الغرف ..
ارتبك ...

تصلبت يده القابضة على أكرة الباب ...
لم أكن قد جلست بعد على حافة السرير اللاهث المترقب ! وهذا العامل
الكريه يبدو أنه تابع خطواتي منذ بدايتها .. كان ظلي دون أن أدري .. ظننت أن
العالم كله سيغمض عيونه عن لحظة حب بين عاشقين طال وجدهما .. لكن
الدنيا كلها تصير عيوناً فضولية تشتم الرائحة .. للحب رائحة .. للشوق رائحة ..
وحزن الحب له أيضاً رائحة !

اعتذر من العامل .. واعتذرت له .. حملت هديته .. سبقته إلى الباب ..
العامل ينتظر .. لوح أسود يحول فرح اللحظة إلى مأتم ! كرهته ... حولت
نظري إلى الرجل الذي أعشقه ... لم تلتق العيون .. بل التقت خيبتان حزيتان ..
ويبقى الشوق المحنون يدوى ... افترقنا .. كانت ليلة واحدة .. جاء إلى
أرض الحب لنلتقي .. فكان لقاء تتوج بالحرمان ..

الحلم يراود النفس .. في الحب .. لا يأس .. الرغبة حارقة .. والحرمان
يولد جوعاً إلى لحظات أخرى .. يتكرر اللقاء .. وتتكرر الخيبات ... وكل خيبة
تزرع أملاً جديداً .. الدنيا ترفض .. ونحن نقاوم الرفض ..

ينمو شيء عميق ما بيننا ... وشتاء يجئ .. وصيف يرحل .. والحب ما بيننا
لا يهتز .. ولا تتساقط أوراقه .. وهو الحب الوحيد الذي عرفه قلبي .. ظل هو
الوحيد الذي أحبيته ... وحرمتني منه كل الظروف ... ويوم صار بمقدوري أن
أتنفس هواء الحرية ... قال لي :

- لا يجب أن أسيء لك ..
لكنني أحبك .. وأنت أيضاً ..
هز رأسه موافقاً .. لكنه صمّم على رأيه المفجع :
- سمعتك .. وكلام الناس .

دس السكين داخل صدرى .. وذبح أول فرحة لى ... صفقت بابه ..
خرجت ... وأمسكت بقلبي ... عصرته ، مزقته .. وقررت أن أدفن كل
الذكريات .

هربت !
طال هربي !

كنت أعلم أنني أهرب من نفسي ... كنت أشعر يوماً بعد يوم ... أنني أذبح
الشيء الرائع الذي يتحرك داخلى .. كنت أنوى دفن صورة وجهه الأسمر
الهادئ .. الذي تربع داخل الأعماق .. لكنني ذبحت نفسي ... وقدمتها قرباناً
لإله حب جديد . صرت عاشقة ! معشوقة ! ظالمة ! مظلومة ! سجانة
ومسجونة ! وسبحت فى الظلام . ولا تزال محاولاتي لقتل الصورة الحبيبة
ولكن !!

ها هي الفرصة ... دقت ساعة الميلاد الجديد ... وقد اعتاد أن يرانى وأراه
فهرعت إليه . إلى كل السنوات الماضية .

وسمعتة يهمس :

- كل عام .. وأنت بخير ...

بعد هذا الهروب الطويل .. يذكر ..

طبعت قبلاقي .. استسلم لها بدفء .. عجبت ... لكنني فرحت ...

خشيت لحظة البداية ... سحبت نفسي من أمامه .. حمامة عادت لها الروح من
جديد ... واغتسلت من كل الأدران ..
تساءلت وعيناي في عينيه ... وفي نفسي أفتح باب الفرح :
- هل تنقذني من غرق جديد؟؟
واحتواني .. وهدر الهمس بيننا .. « للحب .. صوت لا يقهر » .

حاجز النار

من الزلزلة يا حبيبي ينفجر ألى .. يصرخ صوتى وعرقى يتصبب ... شعلة
الغيظ تحتقن فى داخلى حتى أحس طعم النار فى فمى ويدي ، فأستل الورقة
والقلم .. وأكتب لك ، من هذا المطار .. وغيره من المطارات العربية التى
أصبحت كالفواصل السوداء ما بين بلد وآخر ، ما بين قلب وقلب .. عقل ..
وعقل .. ما بين الدم ... والدم .

هكذا يا حبيبي تمزق الوطن الكبير ، ونصبت حدوده مشانق للحنين المشتعل
فى الأعماق ، حنين الأهل للأهل .. الأصدقاء للأصدقاء .. الأحبة للأحباب .
وأنتظر جواز سفرى المعتقل ... أتسلى ... وأرفه عن النفس الحزينة ...
وأكتب لك ... وخط طولى يشقنى .

هل جربت هذا الخط يا حبيبي؟؟

إنه يفصلك دون أن تنفصل .. يشقك دون أن تنشق وترتاح فى العذاب .
خط من النار .. لاتستطيع أن تستفرغه وتخلى منه معدتك وتستعذب الخواء
من بعده .. ولا أن ينحدر فيخرج مغادراً ويرحك حتى لو قرّح المكان الذى
يخرج منه .

هل جربت هذا يا حبيبي؟

هل أحسست بخط النار يلتهمك من الداخل ، ويشويك فيتآكل لحمك

الطرى .. ويحف دمك الغزير بينما هو رابض لا يتزحزح ! وأنت تقاوم ...
لكنك أبداً لا تيأس .. وأنت تذوب .. لكنك أبداً لا تنكش ثم تموت .. وأنت
تحزن .. لكنك أبداً .. أبداً لا تبكى .

هو ذا ما أعانيه اللحظة .. الخط الطولى يسكننى . أحقد عليه .. فلا يثور
لكرامته ويغادرنى .. فأظل منشقة من الداخل لكن نصفى يلتقيان .. هنا
فى الرأس .. أفكر .. وأتساءل ... وأكتب لك .

* * *

أكوام البشر .. وجوه عفرها السفر ... أطفال تبكى ... أطفال تلهو ...
وتخرب .. وأشياء تنسكب من حقائب اليد ... وأخرى تنكسر ... هدايا من
كل الأصناف .. يحملها الأحباب للأحباب .
المكان ضيق ... لكن قلبى ساحة تحملك بداخلها حباً وشوقاً وأملاً فى
اللقاء ..

يندس الأطفال بين الكبار ... ويثيرون الضيق ولكنهم أبرياء ... ابتسامة
واحدة منهم تجعل العمر ليلة عرس ..
والطابور بطيء ... طابور هنا لأهل البلد .. وطابور آخر لغيرهم .. الدم
واحد .. لكن الطابور لن يصبح واحداً أبداً فى الحدود العربية .

طابور ثالث للأجانب .. يخلو إلا من اثنين ، واحد اشتيت لو كان لابنتى
لون عينيه .. أما الثانى فكان عجوزاً كريهاً ذكرنى بمدير المدرسة التى تركت فيها
ولدى ذات مرة فى بلاد الضباب ... فصاح : هذا مستر وولف ! إنه يخيفنى !

* * *

ملل ... ملل .. ووقوف يؤزم الساقين ، وتأفف خافت كلهاث الفئران
داخل الجحور ، ينبعث من شفاه الوقوف .. لكنه لا يعلن معنى ، ولا يجرؤ أن

يرتفع ، فقد يصادر في صدر صاحبه إلى الأبد .

العيون تتطلع بتوسل إلى الضابط السادي المرتاح على كرسيه يقلب أحد جوازات السفر . يزحف الطابور خطوة .. أزحف ... وأنت في القلب نبضة تتحرك . وفي العين وهج جميل يشع ، يغرد رغم الضيق والضجر .. يزحفون .. وأزحف .. وجهي الآن أمام وجه الضابط المزموم .. كل شيء في وجهه ملعون بالنفور .. وجه ساخط .. مقيت .. جعلني أشفق على أهل بيته .

مددت يدي .. فتسلم جواز السفر وهو ممتعض . فتح الجواز .. نظر لوجهي ليتأكد بأن التي تقف أمامه هي صاحبة الصورة الملتصقة في الجواز .. ثم .. ركز على عيني المتوهجتين بصورة وجهك الذي تركته في مطار مشابه .. ورحلت . وشعرت بأنه يحسدني على هذا الفرح الذي ينغرس في عيني كالنبته دائمة الخضرة وهو محروم من هذا النبات .

— إسمك ؟

قرأ اسمي وسأل :

نظرت إليه بإشفاق .. مسكين ... هم علموه أن يكون صلفاً . عدائياً حتى لنفسه ... فظاً ... عديم الذوق .. وبكل الذوق نطق باسمي ... فأحب هذا الاسم فجأة .. وكأنه قد صدر من ثغرك الذي أشتاقه اللحظة ! أقول اسمي . أرفقه بابتسامة تمنيتها ترطب نظرتي .. فترطب وجهه كله ... ويتسم ... لكنه لم يفعل ... فأشفق ثانية على أهل بيته وأتساءل :

كيف يطبق كاتبه هذه ؟ وإلى متى ؟ يدخل بيته بها أم يرفضها بحق قبل أن تمتد قدمه بخطوتها الأولى وتلامس عتبة البيت . هل يدخل فرحاً يحضن زوجته ويقبل أولاده ؟ أم تراه يدخل ليرتمي حزيناً ... ويكي نازفاً آلام النهار متوسلاً لزوجته :

- أرجوك .. الحقيبي بحبة من الأسيرين .. أو .. بشيء آخر .
شيء آخر قد ينسيه أنه تيراً من إنسانيته حين تعامل مع القادمين ..
والمغادرين ... ويعذبني تصوري أنه ربما ينسى كل الوجوه التي كشرها .. وكل
الأسماء التي راقبها .. وكل الإنسانية التي حقد عليها ..
هل حقاً ينسى كل هذا ويربح رأسه على ذراعه الممدودة . وفي لحظة يكون
شخيره موزعاً في أنحاء الغرفة مما يجعل زوجته تحمل لحافها وترحل ولا تنسى أن
تغلق عليه الباب مخافة أن يتعدى شخيره الغرفة إلى غيرها .. وينام هادئاً ...
وحيداً ... إذن : هم أمروه ... فعودوه .. فطوّعوه ... فسلخوه عن وجدانه ،
ونفسه . فهل تأتيه لحظة الوعي ويستفيق ؟
رفع الجواز ... تصورت أنه سيرده لي . فددت يدي لكنه تدارك وسحبه
قائلاً :

- انتظري هناك قليلاً .

- هل في الأمر سوء لا سمح الله ؟
امتعض ... ركل امتعاضه كلمات .

- أفسحي الطريق لغيرك .. ابتعدى هناك ، وانتظري .
ونفخ ...

لم أدر لماذا ... لكنني رأيت عينيه الجافتين تقعان على يدي التي انسحبت
خائبة دون جواز سفرى وكانت مزينة بالأساور والخواتم . نفخ ! وكانت نفخة
غيظ .. وحسد .. وألم .. نفخ .. وتمنيته لو لم يفعل تمنيت لو واثته
الشجاعة ليقف .. ويصرخ في وجهي :

- أنتم تمتلئون بالذهب ... ونحن هنا في هذا المأزق الوظيفي نجوع ... ونحظى
بالهيبة حين نثير الرعب ونقول للناس : انتهوا هنا الحكومة !

لكنه لم يصرخ ... ولم يفعل شيئاً سوى النفخة .
يا للجمرة !

وصارت الأساور جمرة .. صار وجه الدنيا أسود ، وصارت الطريق
شوكاً ، والغمامة البيضاء الناصعة صارت جناح غراب .. وصار الفرح الذى فى
عينى حزناً ودموعاً .

لم لا يتحول هذا الذهب إلى خبز وماء ؟ لم لا يتحول فرحاً ، وسلاماً
وابتساماً يزين الوجوه التى دفنوها بالخوف ، والسطوة !

فى لحظة .. تمنيت لو أعود إليه ... إلى صدر ذلك الضابط المملوء بالحقد
وبالغضب ، وأبكى مؤكدة له أننى أشتري تعاسته بكل هذه الأساور فقط ..
ليبتسم .. ويرتاح ... ويثور على هذه الفواصل ويصرخ بأعلى صوته :
« نحن أمة واحدة .. فلتكسر كل الحواجز .. افتحوا لنا الطريق .. وزفوا
الناس المنتظرة وعلى وجوههم خيبات الأمل ... أمسكوا بأيدي الأطفال ..
قولوا لهم زمنكم سيشهد الوحدة والالتحام »
آه ... لو يفعل ..

آه .. لو تتحرك الجمرة ويثور ... عندها سوف يبرد هذا الخط الطولى ...
وسوف تهمد النار المشتعلة وتبنى أجسادنا فى الداخل ... تنمو نمواً سليماً
لا إغوجاج .. فيها ... ولا تشوهات . لكنه لم يفعل ! وأبدأ .. هولن يفعل ...
هناك سيف يلمع .. وهناك موت حتمى .

ظل يمارس ساديته على كل الوجوه ... وكل الأسماء ... والطابور الطويل
دودة ذابلة ، والأطفال تنام على صدور الأمهات ... وكثير منهم افترش أرض
المطار التى كانت باردة كالثلج .

أنت في عيني .. تتحول نعاساً عذباً .. والخط الطولى لا يزال يحرق في
داخلي .. ويمزق شراييني .

أسمع اسمي أخيراً .. وأنت كالومض تلمع في عيني .. وكالسحر يطيرني
فأهرع إلى شباك الضابط .. أستلم جواز السفر ... وكالعصفور أطيّر .. أبحث بين
الأكوام المترصة عن حقيقتي وأتمنى لو فرغت من أثقالها لأشحن نفسي بها ...
وأعود ثانية من حيث أتيت .

الجدران ... تتمزق

قلت للزائرة أن تبحث أمرى مع المسئول الكبير.. فوجودى مع هؤلاء النسوة الأكبر منى سنأ يرعبنى ، أنا لا أنكر أننى اقترفت ذنباً ، وأننى أستحق هذا النفى داخل جدران السجن ! ولكن ! مع هؤلاء تُصبح للسجن أكثر من قضبان ...

كررت رجائى للزائرة :

- أرجوك .. أريد أن أكمل تعليمى ... لم يبق على نهاية السنة إلا شهران ... أريد الكتب .. وأستطيع أن أمتحن آخر العام .. من هنا ... وعدتني الزائرة التى توسمت فيها نبلاً ما وجدته عند أحد ... لا عند أمى التى ماتت وشردتني ، ولا عند أختى التى تحولت فى بيتها إلى خادمة ... ولا عند زوج أختى الذى تبرأ منه ضميره ..

- المجرم !

- ألم تكونى قادرة على البوح لأختك بما يفعله زوجها؟؟

هذا السؤال . آه لو تدرى الزائرة كم طرحته على نفسى ... وكم ابتدعت من أجل الايجاء به لأختى مواقف عليها تسألنى .. فأفرغ شحنة الهم التى تثقل علىّ الليل والنهار ... لكنها كانت صمّاء .. لا تسمع إلا نداء الجارات والأسواق ...

- وأولادها؟؟

سألتنى الزائرة .. فحدثتها بكل شيء ...

- أولادها مهملون عندي .. أذهب في الصباح إلى المدرسة ... أفر من عفاريت البيت ، لكن مسافة النهار تنتهى إلى حيث أعود خادمة ترعى البيت والأولاد .. إننى أعمل أمّا بالنيابة عن أختى ... والموقف تطور .
- زوجها !!

- أجل ! يبقى في البيت .. يحاورنى ... يداورنى ... يثيرنى .
التقطت الزائرة الكلمة الأخيرة :

- كنت تشعرين ببعض المتعة !

حاولت أن أهرب من سؤالها ... أن أكذب ... أو أتغابى لكننى أبيت أن أكذب على إنسانة لطيفة ودود جاءت لتسمع قصتى ... وتساعدنى ... وأبيت أيضاً أن أتغابى ... وأنا التى شهدت المدرسة كلها ذكائى ... وتفوقى ... رغم ما كنت أعانيه من تعب في بيت أختى ...
- نعم ...

أجبت الزائرة بنجل أحسسته يلسع وجنتى .. أجل أحس ببعض المتعة .. في البداية كنت أستسلم بدافع الخوف .. بعد ذلك .. صارت العادة جبّارة .. وصار استسلامى بدافع تلك الرغبة التى تتفتح حين يبدأ ..
- هكذا ..

قالت الزائرة ... ودوّنت ملاحظة في دفترها الأصفر ... ثم أغلقت القلم وهى تلقى باستغرابها :

- أنا لا أتصور كيف لم تلاحظ أختك ... أو معلماتك الانتفاخ في بطنك ... وأنت بعد طفلة لم تكملى عامك الرابع عشر .

- تصوريته أختي ورماً .. أو هكذا أقنعها زوجها .. حاول مرات عديدة أن يدوس على بطني .. لكنني أصرخ ! فيخاف صراخي .. أنا ... أنا ...
- أكمل ...
- أنا ما كنت أعرف ما هذا الذي أحمل ... لكنني فهمت أنه مصيبة تترصد أيامي القادمة ...
- كيف احتملت آلام المخاض ! ولم ذهبت إلى المدرسة ذلك اليوم ...
- هل جربت أنتِ آلام الوضع ؟؟
سألت الزائرة اللطيفة .. شددت على أسنانها وقالت :
- لا ... لم أجرب بعد ... ولكن .. أسمع منذ طفولتي أصوات القريبات ونساء الحى وهن يلدن في بيتنا .. لقد كانت جلتى - أم أمى - قابلة - يدها مبروكة .. والنساء يفضلن يدها على أيدي الأطباء .
- لو كنت أنت التي جربت ! كنت ستعرفين كم تكون اللحظة قاسية !
النساء في بيتكم كن يلدن على القراش ... أما أنا .. فلحظة الميلاد .. كانت في مرحاض المدرسة .

* * *

يا رب ..
يا رب ..
يدى تضغط على الحائط ..
أختي فعلت هذا ذات مرة قبل أن يحملها زوجها إلى المستشفى ..
أكره أختي الآن ... هي ليست معي .. فتساعدني !
زوج أختي فعلها ... وهو ليس معي ...
رائحة المرحاض ..

رائحة ذبحى تفوح ..

ماء غزير ينسكب من عيني ...

عرق ينبت من عنقي ويصب في مجرى صدرى المتكور كنهر حزين ...
يدى على الحائط ... أشد ... أشد .. أغرس لحم شفتى بين أسناني ..
أتذوق طعم دمها المالح . عاصفة دائرية داخل أحشائي .. تتحرك باتجاهات
متعاكسة ... دوران موج في يوم عاصف .. موجة تعلو ، تصل حتى كبدي
الخواوى .. ثم إلى أسفل بطني . تنتهى الرعدة العاصفة . أتنفس . لا أكاد حتى
تعود ثانية أشد .. وأقوى .. كيد تعصر الجبل الشفاف داخل جسدى .. تعابته
بقسوة .. يتكوم في مكان .. ثم آخر .. يعاود الصعود .. فالهبوط . يصعد
خفيفاً .. ويرد إلى أسفل بعنف . دوخة تلازم رأسى . تدور الجدران . تتسع ..
تضيق .. تتفاعل مع حركة الجبل الطرى .. ألوان تتشابك في عيني ... خيوط
عنكبوت سوداء ... أكاد أغفو .. لكن الجبل في داخلي يوقظ النعاس ... يعلو
يهبط .. يدور ... يدور .. يدور .. ينفجر بركان دافئ .. يتدفق على ساقى لرجاً
أضمُّ فخذي .. يترحلان بفعل المادة السائلة .. يتعدان .. يتعدان .. يفتحان
الطريق أمام بقية السائل ، ويمتد النهر اللزج حتى فتحة المرحاض المليئة
بالأوساخ . أكره زميلاتي .. بنات المدرسة .. هل مؤخراتهن عوجاء لتخطئ
الطريق ، لماذا يتكوم كل هذا على الأجانب .. أف !!

رائحة المرحاض ، رائحة الماء المتدفق .. أتذكر .. الرائحة نفسها .. رائحته ..
زوج أختي ..

يارب .. أنقذنى ...

أعصر هذا الجبل ... ليسقط الحمل ونحى جسدى .. وليموت العار ...
أتألم .. كيف السبيل إلى الخروج من هذا المأزق ؟؟

هل أصرخ ؟ هل أنادى إحدى العاملات !
هل أخرج إلى الساحة مستغيثة أجر مائى ودمى .. وفضيحتى ؟؟
صوت معلمة الدين ين فى أذنى « وأما السبيل يسره » ...
إذن .. هو الله الواحد القادر على أن ييسر الطريق ..
يسره يا ربى .. افتحه .. أخرج هذا الذى فى جوفى ... هو ليس لى .. هو
لأختى ... لكنه تحدى الأخلاق والضمير والعقل ... وانزع فى بطنى أنا ..
تأتى العاصفة قوية .. يهتز الجبل ...
يارب .. يَسِّرْ ... يارب
و .. يندفع الجبل مرة واحدة ..
وأبعد فخذى ... يخرج الجبل من مضيق ... تتمزق الجدران ..
والشيطان ... وأسمعها تشق نفسها ... كما يشق قماش الثوب السميك .. شيط ..
شيط ..
نزف ! بركان ! عرق ! كله يختلط ب كله .. أصرخ .. صرخة واحدة ..
وتتكوم أمامى قطعة لحم متحركة ... لها رأس وجسد .. ونبض .. ها هنى بين
قدمى راكدة .. تتعلق بجبل يمتد حتى داخلى .. اسحب .. اسحب بكسل
وتراخ متعب ... تندلق قطعة حمراء أخرى .. لكنها بلا رأس ، بلا يدين ، بلا
نبض .
أنظر إلى الطفل .. أتفحصه ولد رجل آخر .. زوج أخت آخر . أركع ..
رائحة الدم تدخل أنفى ، زفرة تختلط برائحة السائل الدموى ، المائى ... وأوساخ
الزميلات ، لم يعد ذلك الزمن بعيداً .. كانوا يثدون البنات ، ليتهم وأدوني ، ما
كنت أريد أن أكون أمّاً بطريق الخطأ .. فلماذا أخطأتنى دروب زوج أختى ؟؟؟
إبن من هذا ؟ ولماذا يعيش ؟؟

أأحمله وأخرج به ؟ هل سيتكلم ؟؟ وهل ستغفر لى العيون التى ستحيطنى
بالدهشة وتنعتنى بالرديلة .
أمد أصابعى المرتجفة ... أبحث عن دائرة العنق الطرىّ أحيطها بالأصابع
وأضغط ، أضغط ، ولا شىء فى ذهنى إلا الخلاص من ابن ليس ابنى ...
صمت النبض ... وسال لعاب من ثغره الذى لم يلثم ثغراً بعد ... سكنت
الحياة التى لم تبدأ بعد ... وسكت بعض خوفى ...
أذكر أننى أخذت أطرق الباب بشدة .. وأصرخ .. أصرخ .. وآخر شىء
رأيت كان وجه الناظرة . وقد شوّهته المفاجأة .

البرءوس إلى أسفل

خرجت للتو من السجن ... شملنى العفو .. ولا أدري لماذا .. هل بسبب سلوكى الطيب داخل الأسوار أم أن أحدهم قد سعى لهذا الأمر - رغم أنه لا أصدقاء لى ولا معارف .

« كلهم تبرءوا منى بعد أن أصبحت مجرماً »
فرحت بحريتي ... فجأة شعرت أن أجنحة نبتت لى وأنها تطالبني بعملية طيران سريعة .

« اضرب الفضاء بجناحيك .. هل كنت تحلم بهذه الحرية ؟ »
ثمانى عشرة سنة ... بعد ظلام السجن .. رأيت الأفق من حولى كرة ضوء .. تلمع ، وتنير ، وتخطف بصرى ، فأمدته .. أقطع به أطول مسافة ممكنة .

لكننى واقف مكانى بعد أن خرجت من الباب الذى أوصد دونى سنوات طويلة .. كان القاضى يرى أننى أستحق الشق .. لكن الدفاع أصر أننى ارتكبت جريمة دفاعاً عن شرفى الذى أهدرته زوجتى .

جريمة؟؟
ما الذى يجعلنى أتذكر؟؟ لقد انتهى ذلك الماضى ... أنا الآن بحاجة إلى مستقبل أكثر رحابة ...

أى مستقبل ؟ ! عمرى الآن جاوز الخمسين ! فهل من مستقبل يرحب بى
ويربت على كتفى بحنان ؟ !

لعنة الله عليها ، لم يشف غليلى بعد .. لو كانت على قيد الحياة ، لما ترددت
فى ارتكاب جريمة ثانية ! وفى هذه اللحظة بالذات .

كان يجب أن أقتلها ... مرة ومرتين .. وعشراً ... تلك المرأة المجنونة -
زوجتى سابقاً - الله لن يرحمها رغم أن رحمته وسعت كل شىء !
أين أذهب الآن ؟

إلى بيتى ؟ لا أظن أن الأرض بقيت كما هى ... ولا البيوت ، كذلك ...
ولقد نسيت حتى اسم الشارع الذى كنت أقطن فيه .
تحسست جيبي ...

- حسن ، قليل من النقود يفيد .. و .. تلك هى ساعتى واقفة .. أتعرق فيها ..
أهزها .. لكنها واقفة !

غريب أن يقف الزمن ! لكنه هناك خارج إطار ساعتى يتحرك ، يسرع ..
ربما يهرول ... والآن فكيف مرت كل هذه السنوات الطوال ؟
سرت ...

وقفت على الرصيف .. الهواء منعش .. نحن فى شهر ديسمبر الشمس
ساطعة ... لكن الأرض رطبة ، مبللة الوجه .. ويبدو أنها قد أمطرت ليلة
البارحة .. الشمس اليوم أشرقت تستقبلنى .. وحدها تستقبلنى ... لكن وجهها
عنى بعيد . فكيف أعانق هذه الوجه الدافئ البعيد ؟؟

آه ... لقد كان وجهها دافئاً ... لكنها خدعتنى .. ومسحت الخديعة من
نفسى كل رغبة ! فلم أعطها شيئاً .. وهى تصرخ باستمرار :
- أنت زوجى ... وملزم بى ..

- لا أستطيع أن أعطي شيئاً ...
- أنت لا ترضيني ... لم تفكر مرة أن تشتري لى ثوباً جديداً .
- عندك ملابس ... وجسدك مستور !
- أريد شيئاً منك .. المرأة تحب الرجل الذى يصرف عليها ولا يبخل ! يرضيها مادياً .
- « ابنة الكلب .. لم تكن تفتأ تعيرنى بفقرى »
- لولا ما أحضرته معى من بيت أهلى ... لكنت عارية فى بيتك
- ربما يكون هذا أفضل .
- أفضل؟؟ ولماذا؟؟ أنت حتى لا ترضينى جنسياً
- « اللعينة ... تعيرنى بعجزى » .
- أنا امرأة ! هل تعرف ماذا يعنى هذا؟؟
- « أعلم .. بالطبع أعلم .. لقد تزوجتك فاكشفت أنك امرأة » .
- كل النساء يعرفن المتعة .. أنت فقط رجل لا تجيد الصنعة ... أنا لم أذوق متعة معك .
- « بالطبع ... هذا صحيح لكنك تذوقتها مع غيرى أيتها المخادعة » .
- أنت عاجز ...
- لم أكن عاجزاً أبداً .
- « فى الليلة الأولى فوجئت بأنها ليست بكرأ .. بكت .. توسلت .. وقبلت قدمى .. وطلبت الستر .. أشفقت عليها رغم الطعنة .
- فى الليلة الثانية حاولت .. فرأيت فى وجهها صورة رجل يمد لى لسانه شامتاً ... فانتفضت .

وفي كل الليالى التى تلت ... حتى ليلة الجريمة .. كان لسان الرجل يمتد فى وجهى .. وأنتفض ..

زعق بوق سيارة .. انتفضت هلعاً .. هذا الصوت لم أكن أسمعه وأنا فى السجن .. كل شىء هناك كان هادئاً . السيارات لا تقف .. أشير إليها فلا تقف . باصات طويلة ... تحمل أكداساً من البشر .. لا تقف ... وفضلت المشى .. الرياضة التى لم أمارسها منذ ثمانى عشرة سنة .
التقيت شرطى مرور ... سألته عن مكان ما ...

المكان الذى سألته عنه كان قهوة قديمة أجتمع فيها مع مجموعة من الأصدقاء نشرب « الكدو » ونأكل « الباجلاء » .
لم يعرف الشرطى المكان .. قال :

— نحن لا نعرف أكثر من حدود عملنا ... اسأل غيرى
« فى إحدى رحلاتى إلى الخارج أيام الشباب سألت شرطياً عن مكان ما ..
فأخرج من جيبه خريطة أنيقة فردها أمامى .. وأخذ يشير ويشرح .. و...
أخذت منه العنوان كاملاً ... وشرطتنا هنا لا يملكون خرائط !
معه حق أنه لا يعرف . »

تتوزع عيونى فرحة بالنسيم ، وبالشمس ، وبأصوات السيارات ، وبلون الفضاء ... الذى بلا لون .. وتصطدم بلون إسفلت الشوارع .
« قبل دخولى إلى السجن .. كان لون الإسفلت أسود غامقاً » .
الشرطى لا يزال واقفاً .. ربما ينتظر سيارة ما .. ألثفت إليه

— ألا تلاحظ أن لون الإسفلت تغير؟

قال دون اكتراث وهو يشير لسيل السيارات الطائشة

— من كثرة الأموات تحت العجلات

ارتجفت

« كثيرون إذن يموتون كل يوم ... أبرياء ... يُسحقون تحت العجلات فلماذا عاقبوني حين قتلت؟؟ وكانت القتيلة مجرمة .. خدعتني .. فأصابني العجز نتيجة خداعها .. ثم صارت تعيرني بعجزى ليل نهار . ثم بحثت عن المتعة مع غيرى ... فعجزت عن الصبر .. أمسكت بالمطرقة وانزلت على رأسها بالضربات حتى ساح سائله أمامي » .

قدمای تقوداننى إلى موقف أحد الباصات .. أفرض نفسى داخله .. وأتركه يمضى بى .. ويمضى .. لا أدرى إلى أين .. كنت أنتظر أن يمر من شارع أعرفه .. أو سوق أذكرها .. أو بيوت قديمة أعرف من بينها بيت صديق قديم ألتمس منه الرحمة .. والعون

لكن الطرق ضاعت .. ولم أجد بداً من الترجل .. عند آخر محطة وقف فيها الباص . منطقة مزدحمة .. عرفت فيها سور مدرسة قديمة عملت فيها أول ما عملت مدرساً للرياضة البدنية .

فرحت .. أطلقت لساقى العنان ، تجولت فى المنطقة .. بعض آثار تدل على الزمن الذى مضى . وكثير من الجديد الشاهق الملىء بالإعلانات والياфطات وبالأسماء التى تحمل صفات مختلفة ، التاجر ، المقاول ، المحامى ، الطبيب المهندس ، إلا المدرس . هو الوحيد الذى لا توجد لافتة باسمه .. ولولاه لما كان

الطبيب ولا المهندس ولا غيره من حملة الشهادات والصناعات جلست فى مقهى .. طلبت شايًا ... وأخذت أتأمل الشارع والمارة والسيارات المحتشدة التى تسير ببطء وتقف طويلاً ، حتى يتسنى لها أن تمر نتيجة الزحام .

تقف سيارة فارهة تقودها امرأة .. وجه نسائى بلا شك أنا أعرفه ، الزحام

شديد .. والسيارة تقف بصاحبها ، أترك مكاني ... أقرب ... وأمد رأسي
داخل السيارة من خلال الشباك المفتوح ناحية اليمين . تلتفت نائرة . لكنها تفاجأ
بي ... أجل .. هي .. ولقد عرفتني بعد كل هذا الزمن ... وقبل هذا عرفتني
ذات وجه ملئ بالبراءة ، وبالطيبة ، ولها عينان يبحر فيهما الطهر والعفاف لكنها
اليوم في وضع مختلف .. ومع ذلك عرفتني وعرفتني

- ألسنت فلانة ؟

- أجل .. وأنت .. ألسنت

- أنا .. أنا هو بعينه .. خرجت اليوم فقط

- آه

هزت رأسها .. وسألت

- ماذا تفعل؟؟

- استدرت برأسي قليلاً أشير إلى القهوة .

- لا شيء ... أحتسى الشاي هنا .. ولا أدري بعد ذلك ماذا أفعل

- اصعد ...

- ها ؟

- هيا اصعد قبل أن ينفك الزحام ... ستتحدث في السيارة

صعدت ...

نسيت الشاي ! وثمان الشاي .. وصعدت .

دخلت إلى أنفي روائحها الشهية ! أول امرأة أقابلها منذ ثمانية عشر عاماً

وتعرفني .

- كنت جارة لنا ...

- أيام كنت شاباً .. تعاكس كل البنات ...

« فرحت .. هي تذكر شبابي إذن .. لكنها لم تكن أبداً واحدة من البنات اللاتي عرفتهن ، واحتفظت بقطعة من ملابسهن في خزانتي .. لم أكن أكرر الفعل مع واحدة .. كنت أكره هذا » .

ابتسمت وقلت :

— إلا أنت .. كنت غير كل البنات !

قهقهت بصوت ينم عن نفسية ساقطة

— كان هذا أيام الفقر ! أما اليوم .. فأنا مليونيرة

حاولت أن أكذب ما فهمته نفسي

— هذا بالطبع لا يمنع أنك الآن امرأة فاضلة كما كنت فتاة ذات سمعة طيبة

مصممت شفيتها .. تحدثني بنظرة فاسقة لم أستطع تكذيبها هذه المرة

وأكدتها كلماتها :

— كنت بلهاء .. أما اليوم فأنا أعيش حياتي طولها .. وعرضها .. وعمقها ليس

أروع من أن يقطف الإنسان ثمار المتعة من كل روض .

« كلهن مثل زوجتي .. يبحثن عن المتعة » .

كان الزحام لا يزال .. وطابور السيارات واقف لا يتحرك شعرة . فتحت

باب السيارة . وهربت .. بعد أن نظرت لها نظرة حقيرة ، وبصقت على الأرض

أمامها .. وعدت إلى مكاني .. فوجدت الشاي لا يزال لكنه صار بارداً

تنهدت ..

قمت من مكاني بعد أن دفعت ثمن الشاي .. هذه الدنيا الواسعة تضيق من

حولي .. وتضيق حتى لكأنها حبل واحد يشد على عنقي .. لا إنسان أعرفه ، ولا

أهل ، ولا صديق أُلجأ إليه .. ولا بيت ينتظرنى .. لأرتاح فيه .

« كان السجن بيتي .. كانت لي فيه غرفة مع زميلين نتسامر ونتحدث ...

ونتأزح ... وأحياناً تغلبنا الرغبة فنحققها ..
هناك بيت كبير أعرفه .. بيت عائلة .. ترفرف عليه حمامات بيضاء سرت
أبحث عنه .. لعله يفتح لى أبوابه .. يعتيرنى ابناً من أبنائه .. لكننى وجدت
مكانه مقبرة كبيرة ... وعلى كل قبر يتصب شاهد أسود كتب عليه اسم الميت
وتاريخ وفاته باللون الأبيض

اقتربت من حارس المقبرة :

- ألم يكن مكان هذه المقبرة بيت كبير يضم عائلة واحدة ؟

هز العجوز رأسه .. وحرك شفتين يلتمع الأسى فيها

- بلى يا ولدى ... لكن أصحابه هجروه ... فصار مقبرة

- وأين ذهبوا ؟

- ذات ليلة ... هبت عاصفة وملية حمراء ... حملت معها آلاف الجراد

فخاف أصحاب البيت ... هربوا إلى مكان بعيد .. وسكن الجراد البيت

لسنوات طويلة .. أكل كل ما فيه .. ثم رحل .. وانتهى الأمر كما ترى الآن

صار بيت العائلة الواحدة مقبرة .

- وأنت .. حارس المقبرة ...

بكى الرجل .. مسح دموعه بكى رداً .. وقال عبّر نشيج متقطع

- أتأمل .. أن يعود أهله الذين هجروه .. فيحيوه .. ويلتئموا ثانية

طبطبت على كتفه بحنان :

« لم أكن أفعل ذلك مع زوجتى » .

- لا تحلم أيها العزيز ... لا تحلم ..

لكنه انتفض ولمع فى عينيه شعاع . مسح الدموع

- بلى .. إني آمل ... لا بد أن يعودوا .. ويعود البيت

هزرت رأسى مشفقاً :

— الأموات لا تحيا .. خير للميت أن يبقى ميتاً ... وللتائه أن يبقى تائهاً
تركته ... سحبت قدمين ثقيلتين .. لم تعد رغبة ما تشدنى للمشى .. وجوه
الناس التى تقابلنى إما صفراء بائسة أو متخمة حتى لتكاد تنفجر ! الأطفال
يتسارعون بين السيارات يبيعون الأشياء الصغيرة من أجل أن تسد أفواههم
الجائعة التى تغذى من جفافها الذباب .

أرخيت جسدى .. تهاوى كأنه بانتظار هذه اللحظة تأملت الفراغ من
حولى .. لم يعد فراغاً نقياً ..

يا إلهى ..

ثمانية عشر عاماً .. كنت بعيداً عن الدنيا - فأعود إليها لأجدها تدور .
مقلوبة حتى صارت حياة الناس إلى أسفل .. وعيونهم إلى أسفل .. إنهم لا يرون
إلا أجسادهم الممتدة إلى أعلى .. فوق رؤوسهم .. ويوماً بعد يوم .. ينزل
الجسد ويدفن الرأس .. وتصبح كل المدينة مقبرة لكل الناس
بكيت ..

لم أكن أبكى أبداً ... حتى عندما رأيت جسد زوجتى غارقاً فى دمه ..
والجيران وأهلها يولولون ويتحبون بمرارة .. كان الجسد الميت أمامى كالذبابة
المهروسة ، شيئاً .. لا قيمة له ... ولا يجب البكاء عليه .
الناس ... كالذباب .. يحطون .. ويرتفعون .. يمتصون دماء بعضهم
بعضاً ... ثم يُهرسون إما تحت عجلات السيارات .. أو عجلة الزمن . لا
فرق .. لكنهم بالتأكيد لا يشعرون بالأمان ...

« هناك فى السبجن . لم أكن أخاف من شىء .. آكل وأشرب .. أضحك ..
وأتكلم .. وأمارس الجنس بطريقة .. أو بأخرى حسب الظروف .. »

الدنيا ضيقة .. وفي السجن تكون أرحب .
رفعت جسدي .. وتركت لقدمي حريتهما في المشي .. في الركض .. في
البحث عن جريمة أخرى تعيدني إلى حريتي .

لا خبر... لا ...

الموسيقى طوفان ... والقلب غريق .. والجلد يتنفس من تحت الثياب فينفث
رائحة سلخه القديم ... والصدر .. عشق يتوارى .. ووجد يتنامى بين
الضلوع ...

والطبل ، والطار .. وصرخات المعجبين والمعجبات . بصوت المغنى ذى
البحّة الحزينة .. وكلمات الأغنية دبائيس تنخر الذاكرة .. وتترف أحداثها
« لا خبر .. لا كفيه .. لا حامض حلو .. لا شربت » يغنى .. وهم يصفقون

« قلبي يحزن ... فأين الخبر؟؟

« لا خبر »

انقطعت الأخبار بيننا .. عيناك السمراوان رحلتا .. مُدناً من الحزن
الأسود .. تلّوحان من البعيد .. حيث أنت .

« ولا كفيّة »

وكنت تلّوح بها .. عريتَ شعرك المجدد الكثيف ولوحت بها مودعا وعصرت
حزنى .. من خلف الشباك الزجاجى .. ففاض عصيره دمعاً أحمر !
يغنى .. وهم يصفقون بانتشاء حلو ..

نسيت طعمه .. منذ نسيت جدتي حنانها .. وثارت على ..

يوم كنت طفلة .. حملت لى حامض حلو .. وبرميت وأشياء أخرى
طرية .. حلوة المذاق .. لكنها بعد ذلك .. غرست نظرتها المرة فى وجهى
وزعقت :

- غريب ! غريب

ونفخت ثورتها ... ورماد جسدى المسلوخ يتوقد أمامها ناراً ... وهى
تنفخ .. وتنفخ ... ويشتعلى الذهب ... والأكف تشتعل بنار الإعجاب
يصفقون ... كأنهم يضربون أبواب الذاكرة المنسية أشياءها تحت الركام ... وهو
يغنى ... والحز يقطر من الصوت أحمر .. كقطرات « الشريت » .

« والشريت » الأحمر على الصوانى يدور ... وضاربات الطبل ، والطار
يشرن .. وأرى دمي ... فى الكئوس .

رائحة الدخان تحنق المكان ... ورائحة جسدى شواء قديم يفوح .. وحدى
أشمه .. وأتلمس اللحم الذى سلخته سياط ثورتهم .. وحرارة صوت جدتى .
تصرخ بعنف :

- غريب ! غريب !

وكلهم هنا أغراب تألفت آذانهم .. وحده يغنى .. غريب عن الدنيا التى
يتيه فيها صوته

« لا خبر .. لا كفىة .. لا حامض حلو .. لا شريت ... » وهم
يصفقون ... والأكف سمراء حرّة طليقة ... وكفى الحارة تشد على ثوءمها ..
وكفّ أبى الغليظة تلوح ، أقبلها فى الصباح ، وفى المساء .. واجب يومى كرهته
وثرث عليه ذات يوم ... فتمردت ... وحين مدّ كفّه تركتها معلقة فى الهواء
وصوته المتسائل :

- أراك لا تقبلين يدى ...

وكانت نفسى الحبلى بالحرمان مشمثة فرددت
- مخاط أخوتى .. و « سعايلهم » على كفك !
وذكرنى بنظرة حمراء
- بالأمس رفضت حليب « النوق » الذى قدمته لك
قلت :
- لقد شرب اخوتى منه قبلى
هزئ لى :
- اشمأزت نفسك منه .. بينما هو حليب أصيل .. أهدها لى أحد الأصدقاء
الأثرياء .. هل تعرفين ماذا يعنى هذا ؟
- لا يهمنى .
قلت .. نصفها خرج شجاعا .. وآخرها جبان يسحب نفسه وكان الرد
تهديداً :
- حين تكبرين ، سأزوجك سيداً ، مثل أختك ... وستعيشين فى قصر كبير
وأصلحت الخطأ بقولى
- قصدك قبر ! أخرج من قبر لأدفن فى قبر آخر ... أنا يا أبى أكره القصور
وأكره من يعيشون فيها ..
- تسمين القصر قبراً ... والعريس ؟؟
- أسميه الدفان ... والقاتل .. أنا يا أبى لن أتزوج
- حين يأتى العريس ... ستحبينه .. سيقدم لك حليب النوق ... وستشربينه
حتى لو بصق فيه ! ستحبين منه كل شىء ... وستقبلين يده .. وربما قدميه ..
ستشمين عرقها الذى تفوح منه رائحة العز والشبع الذى تعودت عليه هنا أنت
أصيلة والأصيلة للأصيل

وقلتها :

- لا

وأعلنت عصياني ... مرة ... وثلاثا ... وعشرا .

- لا ... لن أتزوج من تختار ... وسأبحث عن رجل آخر . رجل تفوح من قدميه رائحة التعب ... فلاح تناسل الديدان من تحت أظافر كفه التي تزرع أو ربما .. عبد مجلود ... عند سيده ألف جلدة ! أريده صافي العينين ... لم يرهق لألاء الذهب بؤبؤيها ولم يذق حليب النوق ويتخم ... ولم ترتج ضلوعه على أسرة الحرير والديباج ... أريده ... رجلا من الأرض .. يعشقها ويلتحم بترابها . وينام على عشبها .. وأنام على زنده .. أغفو ، وأحلم ... رجل واحد ! لامرأة واحدة وليس مثلك يا أبي تنتقل كعقرب الساعة من جسد إلى آخر تحرث ، وتشبع ، والأرض عطشى ... كيف تنام يا أبي كل ليلة في فراش ! ولماذا تريد أن تهديني رجلا ... يملك فراشا أو فراشين غير فراشي ؟؟
دعني أبحث .. أبحث وحدي

أبحث عنك في أزقة الذاكرة التي تراكمت فيها الأحداث .. أبحث في وجوه الرجال المصطفين أمامي .. يتأيلون ويصفقون ... ويرددون مع المغني حزنه ، فرحه ، كلماته ، ألحانه ... وأتمنى أن المح في وجه أحدهم شهاباً بك وحزناً يشبه حزنك .. لكن ملامحك غائبة .. هاربة من كل الوجوه ... مرسوسة في زاوية واحدة من الذاكرة ... يوم رحلت .. ووجهي يودّعك من خلف الزجاج ... وأنت تلوح لي بكفيتك الحمراء المنقطة .. التي تحلم ... وتحلم ... بالوطن . بالعودة . ويكفك الذي عرف معنى التعب كفك الغريب عنهم ... القريب إلى قرب أنفاسي ... ولهاثي ... ونبضي

يصمت المغني ... وفي الذاكرة حنين لا يعرف الصمت ! ربة البيت تقترب

منى .. تقدّم الصحن .. والسكين . قلبتها بيدي .. ريشة أرسم بها على النفحات
الحزينة خطوط الحكاية التي كانت .

وكان الحب ... ضيف حل في القلب .. ونسف كل الفوارق ... لم ترفع
رأسك لتناول الشمس فتحرقت .. ولم أنحن لتخدش الأرض وجهي .. كان
الخط بيننا واضحاً .. متيناً ... وتلاقت كفانا .. تتعاهدان ... وتعلنان خبر
الحب الحالم باللقاء الأبدى ! لكن اعلان الحب النظيف فضيحة ... وحديثك
لأبي كان جريمة عوقبنا عليها بقسوة

حتى جدتي .. نسيت حنانها ... وأكدت :

.. حلاة الثوب رقعته منه وفيه « ... وهذا غريب !

وامتدت كل الأصابع تبصم رفضها على القلب ، والجسد ... وكفت
أبي نار تسلخ جسدي . وتسلخ . وأنت ! رعبٌ يهدد أمن العائلة ... ولا بد من
العقاب

وتترك الأرض التي بذرت فيها الحب .. تتركها مرغماً ويبقى الشواء على
جسدي بانتظار لمسة النسيان

يبقى الصحن .. والسكين .. تافهين .. مكونين على الطاولة الرخامية
أمامي .. تماماً كما بقيت أنا .. فلم يأت الرجل الذي يحلم به أبي .. ولا جاء من
يسقى الشباب حليب النوق ، ولا من يطعم حتى السم ليريح النفس من أثقالها
الطعام مصفوف .. أنواع يملأ المعدة مجرد النظر إليها .. فلا تشتهيها
النفس .. ولا ترغب في رائقها .. ولا تبقى إلا رائحة الحب التي لا تقوى جدران
القصور وأسقفها المذهبة على خنقها ..

أنسلّ من المكان .. وصوت المغني يتقاطر حزناً في أغنيته الجديدة
« ودّعوني .. ودّعوني .. » .

الملمص

ستأتى الآن يا سعود ... والليل أوشك أو كاد أن يودع بطانته السوداء
وأنا .. هنا .. بالذل الذى يرقد فى داخل أنتظر ... فى الفراش الثلجى ، عشبة
جافة أنتظر حتى يأتى هديرك ... وتشتعل عاصفتك . وفى الخارج عاصفة
شتائية .. وصراخ الطبيعة أرحم من صراخ عينيك .. وحنجرتك .. وأوامرك
- قومي .. أريد ماءً ...

تصرخ أنت ! والليل يصرخ .. وتصفعنى كفه السوداء . والذل فى الداخل
يصرخ .. يشق عظامى .. عظمة ، عظمة - وأصداء صوتها وهى داخل
« مسبحها »^(١) الدافئ تصرخ .

- نوره يا نوره

وأهرول ... أدق الباب الخشبي المتآكل

- نعم يا زوجة أخى ...

- « خلص الماء » ... إزعجى من البركة

وأزفر مرة .. ومرتين .. لكننى ملزمة أن آتى بالماء ... وإلا سيطالنى بها عصا
حامية دائماً .. ونثار فمها الذى يتقاذف على وجهى كالرذاذ المر .. ويدها
كالعنكبوت الأسود تصل إلى عنقى .. واليتم .. الأم التى ماتت ... والأخ

(١) المسيح : الحمام .

المرتعش دوماً أمام صراخها ... كل هذا جعلنى أمد الخطو السريع إلى البركة
المتربعة وسط الحوش ، وقد اهترأت أطراف عنقها المربع ... والدلو جنين
مخدوف على الأرض ، يتدلى حبله السرى داخل البركة
- الماء الماء ... يا نوره ..

تغتسل ... هى تغتسل ، ويوم تفعل هذا فان الليلة مقمرة .. والسطح
وفراشها الذى تفوح منه رائحة البخور ورائحة جسدين شبعت عيناى من عريها
وحفظت تناجيها ... ينبوعان شهيان يطفئ ظمأهما الالتصاق

* * *

وأنت !!

جسدك الدبق ... تأتبنى كل ليلة .. تسبقك رائحة جسدك ... ورائحة
الشراب المتخمّر تفوح كرائحة مسلخ لم يغتسل بعد فأرجوك
- « الله يخليك يا سعود » اغتسل قبل أن تدخل الفراش . لكن طعم سكرك
يفوح من بين أسنانك وتصدمنى بقايا السهر والمجون
- هذا جسدى الزوجى .. وعليك أن تقبله كما هو
يركبك عنادك .. وتلصق جسدك القدر بجسدى .. لكنك لا تفعل .. يمتد
بينى وبينك وجهها .. وتلك الذكرى ... وتنام .. أنت تنام .. وعيناى وحدهما
لا تنامان ... حزن يبحث فى قرار الليل عن شفق .. عن سماء .. عن قلب عن
شئ يسد فى أذنى مصدر الصوت الذى كان .

* * *

- يا نوره ... الماء ... أعمانى الصابون .
وأستعجل .. والدلو يستعجل هو الآخر ، ويمتط الحبل أمامى كجسد ثعبان
خائف .. يهرب ... ويهرب ويسقط فى بركة الماء .

فزعت ... وانحنيت برأسي نحو الداخل ... أطل في البركة الرطبة .. كانت
الصراصير الشقر الصغيرة تتطير ، وثمة بيوض أخرى حمراء تلتصق بالجدار
الأسمنتي ، صوتها مُلح يستعجل .. وعيناي تجولان باحثتين عن الدلو .. لكن
الدلو صار في القاع ، ولم أر سوى صورته في وجهي الخائف منعكسة في البركة
تتمزج بفرح الماء .

ودعت وجهي .. وأسرعت إليها

- لقد « طاح » الدلو في البركة

ولعل صوتها في الداخل

- طاح^(١) حيلك إن شاء الله .. إذهبي بسرعة إلى بيت « بوسعود » وأحضري
الملمص .

والنشوة تطير بي .. وديب في القلب يداعب . وأنا في طريقى إلى بيتكم
فكرت

- لماذا لا يكون عندنا ملمص يغنيننا عن استلاف ملمص الجيران في كل مرة ؟؟
لكنني عدت وحمدت ربي .. لولا هذا .. كيف سأراك ؟

وتحرك في القلب فرح ! أنساني وخز الحصى تحت قدمي الخافيتين اللتين
تعابثان التراب .

وحين امتدت يدي لتدق الباب تساءلت

- هل ستكون في الداخل ؟ هل ستكون ؟؟

وانفتح الباب ... كان وجهك كالشمس تشرق أمامي .

- أنت ؟؟

همست بها فرحا . كأنك رأيت وجه القمر !

(١) طاح : سقط .

- نعم .. نريد الملمص .

- الآن !

- زوجة أخى فى « المسيح » نفذ الماء .. وتريد

انشرح وجهك .. وهتفت

- إذن ! هى فى المسيح !

أرخت الرمش خجلاً وأحسست ناراً تشوى وجنتى

- نعم .. هى فى المسيح .

وأنفلت إلى الداخل انفلات مهر تعلم السباق . جئت والملمص بيدك يتدلى

بأطرافه المعقوفة .

- سأذهب معك .. أنا سأخرج الدلو .. وسأزعب الماء ... وترافقنا ..

فجأة ! أحسنا أننا كبرنا ... والنبض ، له جناحان ، والأمل فضاء يتسع

لكل الأحلام المعرشة فى الداخل .. وأنت تهمس .

- هل تحبين مثلى ؟؟

وأسحب العباءة .. أسد بها نصف وجهى .. أواريه عنك . وجه طفلة

كبرت .. ودخلت عامها الثالث عشر .

ونسير ...

كان لرفقتك حلاوة الزلاية .. تقطعها مرارة سؤالك

- لماذا تكرهين زوجة أخيك ؟؟

- نفيت عن نفسى .. كنت بعد طفلة لا تملك أن تكره ، وكنت فى قلبى

العصفور المرفرف الذى يملأ المكان بكل الحب

- هى التى تكرهنى .. تحملنى فوق طاقتى .. وأنا أتعب

قلت معاتباً

- لا تعانديها .
- لا أفعل ذلك ... كنت من قبل أفعل حين تستكثّر على الراحة في « القايلة »^(١) .
- كيف ؟
- صداعها البغيض يأتيها في ذلك الوقت
- وما دخلك أنت بصداعها ؟
- أنا الطيب .. أجلس على رأسها ساعة .. قل ساعتين .. هي تنام .. وتحلم وأنا متصلة أنتظر لحظة الإفراج
- ها .. ها .. وهل جلوسك على رأسها يخفف الصداع ؟
- لا أدري ! لكنني قررت آخر مرة أن أنهى صداعها
- كيف ؟
- « ضرطت » على رأسها ، فهبت مذعورة ... قرصتني في فخذي .. ها انظر ..
- كنا قد وصلنا إلى الدهليز ... ووارينا الباب حين رفعت ثوبي المشجر ، فبان فخذي الأسمر الناعم .. وأنت تبحلق .. وتقرب .. تتحسس مكان القرصة وتضغط عليه
- آه ..
- هل آلمتك ..
- ارخيت ثوبي .. وارتخت كفك المرتعشة
- أسرع .. زوجة أخى تنتظر
- وأسقطت الملمص بقوة .. فصرخ صرخة غريق ، والماء يتناثر على وجهينا ثم

(١) القيلولة .

هوى إلى الأسفل .. يدك تحرك الحبل .. ویدی تعاىث جديلتی المنحدرتين إلى
الإمام كحبلين أسمرين ... صوتها في الداخل
- الماء يا نوره ... « حسی الله عليك » .
وأنا أحتك :

- أسرع .. ستدبحني اليوم
ذراعك تدور .. ودوامة الماء تدور ! ووجهی فی الدوامة يدور ... وتصرخ
هاتفاً :

- لقد صدته الملعون .. ابن الملعون .
وخرج الدلو بارداً .. كوجهی .

* * *

والليل بارد ... ثلجی .. ليل ظالم ... اب لا يحمل للأبناء الآ القسوة
والفراش الحزين .. الذى لم يدفا منذ الليلة الأولى .. والذل .. والوحدة وأوراق
الأمم المعرشة في الداخل وقد جفت واصطبغت بلون المرض . وأنا ابنة الليل
الجاثم على صدرى جثوم الجبال على أطراف السهول ... أنتظر .. وأنتظر أن
تأتى .. والوقت ثقيل لا أقوى على حمله

* * *

- أنا سأحمل سطل الماء .. إنه ثقيل ..

- أنا أحمله كل يوم ..

- « ميخالف » سأحمله اليوم عنك .

- وإن رأيتك « الذيبة » ؟

- لا عليك .. سأصل به حتى باب المسبح .

وابتسمت ابتسمنا ..

سرنا حتى باب المسبح .

طرقت النافذة الواطئة :

- الماء يا زوجة أخى .

- هاتيه ... ساعة حتى يأتى الماء ..

وانحدرت الدرجات الثلاث إلى حيث تجلس .. وأنت أيها الملعون .. توسع

من فتحة « الدريشة الصغيرة » وتسرق بعينيك نتفاً من جسدها العارى . ونسمة

الهواء غريبة .. دخلت من الفتحة ! أحست زوجة أخى بقشعريرتها ... ففتحت

عينها .. وإذا بوجهك أمام وجهها يملأ فتحة الدريشة وصرخت . فاستيقظت

الجدران ! والصراصير ! والزمن !

- أنت يا كلب !!

والزمن سريع ! وخطوة الخوف أسرع ! وأنا !! كنتُ فى غيبوبة ولا

شك ! وإلا ! كيف حدث كل هذا ؟؟

- أنت يا سعود ؟ لماذا فعلت ؟؟؟

- ستفضحني يا نورة ! وسيدبحني أبى ... ولن نتزوج !!!

- ولكنها !!

- ماتت ! ماتت !

واللمص فى يدك ! يتدلى ملطخا بالدم ! ونتف من اللحم الأبيض ..

وهى فى أرض المسبح ممددة كالسمكة ..

- أخرج ...

- وهذا ..

- خذه معك

لكنك ارتجفت ... فوقع على صدرها ...

وأنت ! سعة تهزها الريح ! وتتناثر الكلمات مختلطة ... تتباعد ..
وتتقارب .. تعلو .. وتهبط ... لتكون المبررات وتخلق الحكاية :
- سأخرج وأنت اصرخى بعد خروجى ، نادى الجيران ... قولى دخل
حرامى اول أن يفعل . و ... هى صرخت ... وأنت هناك فى حوش المطبخ هو
قتلها ... وأنت لم ترى وجهه .. ولا شكله وأنا يا نوره .. لم أقصد أنا
أحبك .. أنت ... وستزوج !! وأنت ... ستسقين هذا المشهد . آه ... أديرى
وجهك للناحية الأخرى ...

- « إذا لم تعجبك رائحتى ... فاستديرى للناحية الأخرى » .
- انظرى .. وجهك أصفر ... يرتعد ... وأنا كذلك .. وجهى أصفر .
- « أنظر إلى وجهك لقد امتصك الشراب والسهر ... لقد نفذ لون الدم من
وجهك ؟ »

- والدماء يا نورة ! اغسلى الدم أنت ! وأنا سأغتسل فى بيتنا .. و ...
سأتزوجك .. أبى يحبك ويتمناك كثة له ... وأنا سأحميك .. ستكونين بحضنى
آمنة ... وسعيدة ... أنا سأخرج : حين أصفق الباب ورأى وأبتعد ...
اصرخى اصرخى ... اصرخى ...

* * *

- آه !

- هذا أنت يا سعود .. أخيراً جئت .
ونظرتك نظرة قط فى نزعته الأخير ...
ورائحتك رائحة دم يختلط ببقايا لحم أبيض .. وأنا أرتعد :
- نم الآن .. أنت تعب .
لكن لونا أحمر يتناثر من عينيك .. يشمل وجهى ، يحرقه ... ولهاثك

المسحور ، وأنفاسك الكريهة ، ولعابك المختلط بطعم المشروب ...
وفحيحك ... وجنونك ..
- وجهك هذا ...

وتتحمسه تحتويه ... تود لو تفعل ... وتعوضني سنوات القهر ، والذل
لكن بيني ... وبينك جدارا ، جرحاً عميقاً شق رأسها نصفين .. تود لو تنساه
لكنك تراه في وجهي وحاجبي ، جرحين أسودين يحولان الرغبة إلى كره
وامتناع !

تمتد كفأك .. تتفارق أصابعها .. تتداني .. تتصلب في وجهي :

- لو يموت وجهك هذا ...

أنتشل نفسي من الفراش الذي توالدت فيه حمم .

- أنت مجنون

- وجهها .. أتذكرينه؟؟

- لقد نسيته ... نسيته !

- لا . هي هنا ... معنا ... في فراشنا منذ الليلة الأولى . وأنت الحب
الذي عاش معي سنوات الطفولة .. تتحولين سيفاً يشق ذاكرتي كل ليلة ...
والخوف لا يزال راقداً هنا .. في حنجرتي فأسقيه الخمر ليخدر ... أنت
تعلمين ... وغيرك لا يعلم .

- لكنني لن أبوح بسرّك ..

- البوح هنا ... في عينيك ! بوح رابض ينتهز كل فرصة ليتشعب هنا
يؤكد الحقيقة يفضحني كل ليلة ... و ... تنهار على الفراش ! وتخرج
الكلمات :

- ماء .. أريد ماء

والماء أتاها ... وعيناك ... والملمص !
ويدي على رأسك الغائب عن وعيه ... وجسدك غلاف رخو يعلن عن
داخلك المنهار وأنا أنتظر ... دلواً في قاع البركة الآسنة !
وحين يصدح الفجر ... أتحسس رأسي خشية أن تكون في الليلة الماضية قد
أتيت وفي يدك ملمص !

حين تبكى المدن

أختى هى التى شاهدت ذلك المنظر ... لكن الصورة المربعة التى ارتسمت
فى عينيها كالوشم الأبدى انتقلت إلى مخيلتى لتتحفر فيها كما تحفر « حبة بغداد »
أثرها فى الوجوه الناعمة .

كانت طفلة ... ترتقى درجات السلم المؤدى إلى السطح كل يوم ... حيث
غرفة ألعابها .. لكنها فى ذلك اليوم صعدت وقت القيلولة ، وأبى هناك ينام فى
غرفته المطلة شبائيكها على المطار القديم .

يومها انحدرت أختى كما تنحدر كرة مقذوفة بأقدام الصبية .. هلع أصفر
يبرق فى عينيها وكل عضو فى جسدها يتنفذ كأنها القنفذ فى لحظة الخطر !
تعثرت الكلمات بين شفتيها ولسانها يرتجف بها ويطل من بين شفتيها
الصغيرتين المضمومتين دائماً كأنهما تزفران الهواء إلى أعلى ...
الصورة تنتقل من عثرتها بفم أختى إلى سمعى إلى ذهنى الصافى الذى يقبل
الألوان وتنطبع فيه بسهولة :

- « أم قاسم عارية فى حجرة أبى ... وأبى يلعب بصدرها .. يرضع ! »
تخيلت أم قاسم بجثتها القصيرة البيضاء ووجهها المربع ، وفمها الذى
يشبه رقم الثمانية ... حين تضحك وتمد لسانها العريض فتبدو طواحينها العليا من
الجانبين ، والسفلى وقد اكتست بالذهب الغالى .

تخيلتها عارية فى حضن أبى ... بصدرها الوردى المحموم الذى يطل شقه

الرفيع كمجرى الماء دائماً من فستانا ذى الفتحة الواسعة .. حتى أننى كدت مرة
أن ألمح حلمتيها عندما انحنى إلى الأرض تلتقط قبقابها ذا الخرزات الملونة ذات
الأشكال الطولية المرصوفة بفن وأناقة . وتخيلى أبى طفلاً يشد صدرها ..
ويعابثه بيد كيد أخى الصغير حين يبحث عن صدر أمى المحروس دائماً خلف
ثوب مستور من صنع يدها وحين تفتح الفستان وتقذف بصدرها إليه تتلاعب
قدماه الصغيرتان ويداه الناعمتان .. ويمد لسانه يلحس حلمتها ، وأسمع صوت
امتصاص الحليب يجرى من نهر أمى إلى ثغره ثم يترك الصدر ليتنفس بعمق ..
فتسيل قطرات من الحليب من حلمة أمى .. أمد أصبعى إليها وأبلله ثم أحسه
فتقول مداعبة :

— تشهى أن تعود رضيعاً يا سالم .

كان عمري يومها اثنتى عشرة سنة . وكانت الطفولة لا تزال جزءاً من
أيامى .. وأبى الذى ودع الطفولة منذ زمن يعود إليها .

فى ذلك اليوم ... وغيره من الأيام ، تبقى أمى فى اللوان تخطط الملابس ...
وعينى تراقب زندها النحيف يدير الماكينة فأشفق عليها وأرجوها مرة ... وثلاثاً
حتى تسمح لى بأن أديرها . بينما تمسك يدها بالقماش وتسحبه باليد الأخرى ...
وبين لحظة وأخرى تلتفت إلى معاتبة :

— ألن تكف عن تمزيق ملابسك ؟؟

وأهز رأسى ... أكاد أعدها .. لكن عربة حصان جارنا «أبو خلف» التى
نتسلقها ونقفز منها تشدنى فأسحب وعدى بابتسامة مغرية تشير حنان أمى التى
تأمرنى بلطف :

— قم للنوم .. ألا ترى كيف ينام أبوك فى القيلولة ؟

والقيلولة بالنسبة لأبى أمر هام ... لكنها لا تحلو إلا فى غرفة السطح حيث

نسمة الهواء الآتية من النوافذ المشرعة .

لكن ! بعدما رأت أختي المشهد ، أدركت أن لغرفة السطح فوائد أخرى غير هوائها المنعش . فهناك يخلو أبي .. يبحث عن جسد يمتد على فراشه غير جسد أمي .. وأم قاسم تأتي دائماً في القيلولة باكية ... شاكية لأمي :

- أختي .. الكلب ... الحرامي ... سرق أرضي ... نهب مالي ...

ثم تسأل أمي وكأنها لا تدري أين مكان أبي :

- « وين أبو سالم الله يعافيك ؟ »

وتشير أمي باتجاه السطح لكنها تكون قد وصلته قبل أن تكمل أمي اشارتها ... ساحبة خلفها عباءة سوداء مسدولة عن رأسها وعن جزء من كتفها فيبدو لحمها الأحمر قانياً وصوت سبابها القذر يتقاذف كالنثار :

- ابن « » سرقني القواد ... لن يفيد معه إلا أبو سالم ... فلا بد أن أشكوه !!

والشكوى تتكرر .. يوماً بعد يوم وأخوها « القواد » لا يفتأ يسرقها .. وينهب مالها . فتأتي لأبي تشكوه ، وأمي تزفر وتنحني على الماكينة كالقوس وتردد :

- « الشكوى لله .. سالفه أم قاسم ما تخلص » .

كذبة كبيرة ... صدقناها .. واستمرأنا خطوتها داخل بيتنا حتى انفلتت قدما أختي كما تنفلت الخيل من مربوطها لتعلن ما شاهدته .. وتكشف سر أبي الذي لم يكن يسمع شكوى أم قاسم ! بل كان يشمها !

أما أمي ... فقد تبلدت وأصابها ما يشبه الموات في ساقها فلم تتحرك حتى عندما انفلت أبي خلف أختي وأخذ يمزق جسدها الأسمر الرقيق « بقصموم »

السعف دونما رحمة .. وكأنه بهذا الجلد البشع سيمحو من ذاكرتها المشهد
المروّع .

* * *

ظل المشهد أثراً محفوراً في ذاكرتي ... وظل وجه أم قاسم الخليج يتماوج في
عيني كلما عبرت الستين حتى التقيت لأول مرة في « حوطة » الحى « بعلية »
ابنتها . فراودتنى النفس أن أمارحها وأعاكسها .. فحاطت الهواء من حولها
فاتحاً ذراعى الطويلتين .. تتحرك إلى اليمين .. فأميل ساداً عليها الطريق ..
وتتحرك إلى اليسار فأسيقها ساداً عليها منافذ الهرب .

كانت تحمل « بقشة » خضراء قابعة متشورة عليها ورود ذات ألوان بنفسجية
وصفراء ... سحبتها منها فانتقلت من يدها إلى يدي دون مقاومة وسألتها :
- لمن هذه الأغراض ؟؟

ولم أنتظر إجابتها .. سارعت يدي لتحل عقدة طرفي البقشة المتقابلين .. ثم
حللت عقدة الطرفين الآخرين فتبعثرت الأشياء أمامي .
ديرم^(١) ومشط من الخشب العريض .. دهن أخضر في زجاجة رسمت عليها
زهرة حمراء .. أشم رائحته دائماً في رأس أمي بعد كل حمام .. حناء .. وليفة
حمام ... ونعل جلدى .. صرة فيها شيء ناعم كالتراب لكنه لم يكن كذلك
حين انهمر بعض منه في كفي ... قنينة عطر على هيئة ثلاثة قروود .. صمّ الأول
أذنيه والثاني يغلق فمه .. أما الثالث فقد حجب عينيه بكف يده .
قربت الزجاجاة من أنفي طمعاً بشم رائحة زكية .. لكن شوقى تبدد حين
لامس طرف الزجاجاة فسألتها :

- ما هذا ؟؟

(١) أعواد خشبية تلون الشفاه - للنساء -

قالت مرتجفة ولعابها يلمع على شفرتها السفلى :
- كولونيا ...

قربت الزجاجاة ثانية ... تصنعت العنف وصرخت في وجهها :
- لا تكذبي ! هذا ليس كولونيا ..

انحدرت دموعها فجأة حين رأتني أفتح الزجاجاة ثم أصب ما فيها على
الأرض ... وتوسلت :

- أرجوك .. لا تفعل .. سوف تذبحني أمي لو عرفت :
هدأتها :

- ما هذا ... - مشيرا للزجاجاة - أخبريني ما هذا ولن أخبر أحداً .
هوت بجسدها إلى الأرض تلم البقشة ، وتمنيت لو ألح شق صدرها كما لمحت
شق أمها من قبل ، لكن الصدر كان مستورا كصدر أمي .
همست بصوت اعتزاه كثير من الخجل ودون أن تنظر إلى :
- هذا بول ...
شهقت :

. بول؟؟ بولٌ مَنْ؟؟

رفعت عينين جميلتين .. ثم عادت ونكستها ثانية :
- بول أمي !!

دهشتي تتابعث بالسؤال :

- بول أملك ! في زجاجاة ! وتقولين كولونيا ...

قبل أن تنطق لمحت كيس الحناء الرخو وهي تحمله في يدها لتضعه في البقشة
فهزئت منها :

- وهذا ... ما هذا ... « براز » أملك ؟

- زمت شفتيها بقرف ولم تجب .
- وقفت .. فاقتربت منها وخجلت من نفسي ... لامست كفي كتفها ...
- فارتعشت .. ءفربت على زندها أسأها :
- حسن ... ولم تبول أمك في الزجاجه ؟
- ورفعت الزجاجه التي فرغت أمام عينيها وأنا أكمل :
- وزجاجه كهذه بالذات ... لا تسمع .. ولا ترى .. ولا تتكلم ..
- ابتسمت ... ثم تداركت وكشّرت فسألها :
- لمن هذه الزجاجه ؟؟
- فرحت يسؤالي لأنه ضيع السؤال الذي سبقه وقالت متعجلة :
- هي وبقية الأغراض لصديقه أمي هناك ..
- وأشارت .. تابعت إشارتها فإذا بها تدل على بيت جار لنا ، فسألها لأتأكد
- من قولها :
- هناك .. ذلك البيت الأصفر ؟؟
- هزت رأسها مؤكدة :
- نعم .. نعم ... هو ..
- وعاد إليها سؤالي الذي حسبته ضاع .. ولكن بشكل آخر :
- ولكن لماذا ؟ هل يتعطر جيراننا ببول أمك ؟؟
- هذه المرة لم تستطع أن تكتم ضحككتها فانطلقت كتغريد عصفور ... وصدق
- صوتها ببراءة :
- أمي تعمل السحر لبيت جيرانكم .. ولكل من يطلب منها : تبول في
- الزجاجات وتوهم النساء أن هذا دهان .. إذا دهنت الواحدة منهن ملابس
- زوجها فإن عينيه لا تشغلان بامرأة سواها .. ولا يسمع لكلام الناس عنها ..

ولا يتفوه على زوجته بكلمة تجرح مشاعرها .

- لكنه بول .. وليس دهانا ..

- هذا صحيح .. لكن النساء لا تعلمن ذلك .. بل تحسبهن علاجاً سحرياً لأسر الأزواج .

وانتهت أنها فضحت أمراً ما كان يجب أن تنطق به ، فسحبت الزجاجة من بين أصابعي .. وهي تتأفف بحزن :

- أف ! ها أنت سكبت ما فيه ... فماذا أفعل ؟؟

واندفعت الفكرة إلى رأسي .. وتالت ... وامتدت حتى ملأت كل جسدي .. فسحبته من يدها .. جررتها إلى « ربعة » الحوطة .. وحبستها خلف برميل عريض صدئ ... سحبت الزجاجة التي لاتزال في يدها .. ورفعت ملابسى . نزعنت لباسى .. وقربت فوهة الزجاجة ! وأخذت أبول فيها وهي جامدة تخدرها المفاجأة وارتعاش يهز رموشها تحاول فيه أن تمنع نفسها من النظر فلا تقوى ...

كلمتها :

- لا تخافى ! سأملأ لك الزجاجة .

امتد ارتعاش رموشها إلى الجسد .. حين فرغت لمحتها تتكوم على نفسها . وتضغط على صدرها بين ذراعيها ... فحرثت الشهوة في عقلى .. وشد الماضى لجامه ... يحول بي مسرعاً إلى صدر أمها الذى رآته أختى فى فم أبى ... وفى أعماقى ... صرخ الصوت :

افعل .. افعل .. ما فعله أبوك بأما .. اخدعها كما خدعت أمها أملك الغافلة واسفح الدم كما سفحه أبوك من جسد أختك التى شهدت الخيانة ! اقتربت منها .. عاصفاً كالريح .. تملؤنى رغبة الشهوة ورغبة الانتقام ..

رمى بالزجاجة .. ثم رميت بجسدى فوقها لأصب النار على الجسد الذى تحوّل
فجأة إلى رغيف ساخن تفوح منه رائحة التّور .

واندفع نشيج كموسيقى الحشرة السجينة فى زجاجة .. ورفعت وجهها ساحراً
.. لحت طبقة من الماء تلمع كالزجاج فى عينيها ... وخلف الزجاج كانت مدن
عينيها تبكى ... وشوارعها تسترحم ... وبيوتها الآمنة تطلب الأمان ... وشفتاها
المرتجفتان تهمسان ... فتشق الهمسة صدرى الملهب .. وتطفى النار ... تحمدها
فجأة ... حين تنهذى الهمسة :

- أرجوك .. أنا لست أُمى !

انتفضت عنها كما ينتفض الحصان حين تهر الصرخة من حوله .. وأسلمت
ساقى للريح خارجاً من باب الحوطة .

* * *

لم تراودنى مطلقاً بعد ذلك فكرة الزواج منها ... فمن يدري ... قد تكون
هى الأخرى نطفة أبى التى انزعت فى رحم أم قاسم .

الإشاعة

فى تلك الليلة فقط ... تغير كل شىء .
عصف عاصف الخوف .. فزق خيوط الألفة الرخيّة ، وانبلجت أسنان
الرعب تهرس رغبتنا كلما فكرنا بجمع الشمل فى مكاننا المعهود الذى شهد نماء
الحب وصفاء الأمسيات .

* * *

كنا نعود ملتحمين .. نغنى بأصواتنا الجماعيّة التى يرقص لها ضوء المساء ...
وتتطاير حولها النسمات حاملة الصدى الأليف .. لكن « شهابو » برز فجأة
بدشداشته القصيرة الممزقة دائماً ، فقطع على أقدامنا الحافية سيرها الوثيد
بخلق بعينه كما يفعل دائماً .. ولعابه اللزج ينحدر إلى صدره الذى تعرّى ..
وصرخ :

– « إياكم أن تأتوا هنا ثانية » .

ماذا؟؟ انتقلت نظراتنا ... والتقت سريعاً .. وقبل أن ينطق أحدهنا
باعتراض صاح بصوت خائف متهدج :

– هناك .. فى تلك « الربعة » يسكن جنى !!

تصادمت نظراتنا السريعة ... نظرات شك ، لكنه أردف حين شعر
بشكوكنا :

— لقد رأيته بعيني .. وحين أطلقت عليه كلبى تجمد الكلب هناك .. انظروا ..
والتفتنا .. إلى الربعة التى شهدت كل شىء

فإذا الكلب ملق .. وقد تدلى لسانه منحسراً بين فكّين مبلّلين .
دفعنا به ... ونما الشوك فجأة تحت الأقدام العارية الطرية .. فأطلقنا
السيقان .. أجنحة فراشيّة تبحث عن الفراغ لتطير .. حتى إذا وجدت الزهرة
المتفضة على غصنها هجعت بارتياح .. وكانت بيوتنا الزهرة التى قصدناها
لا نلوى على شىء .

* * *

وهجرنا « الحوطة » ..

هجرنا الأحياء الضيقة بعد أن كنا كل ليلة نعبر طرقها الأليفة .. ونتمشى بين
البيوت الطينية الواطئة .. نشتم روائح الأبقار والأغنام المربوطة فى أحواشها
وتحت « عرشانها » . ونستمع لكأكاة الدجاج والأفراخ فى دهاليزها ذات
الأبواب الخشبية الشامخة بأصالتها ... الخالية من الأقفال والحديد .. إلا من
« مقحام خشبي » تمتد فى آخر الليل يد الرجال لتغلقه .. وتحمد الله .
وكانت عيوننا تتابع الهررة المتحابة على الأسوار الندية التى تلوح فى شقوقها
بقايا الشعر الإنسانى . أو كسر الخبز الجاف التى امتدت أبداً المارة إليه لترفع من
شأنهم السماء .

نمشى ... واعتياد أليف صادق يشدنا كالحزمة القوية ... حتى نصل إلى مقر
لهونا .. وأنسنا .. إلى الحوطة التى تشهد كل ليلة أنواع لعبنا ... وبراعتنا .. فكنا
نتقاذف بالحصى .. ونغطس فى ماء المطر المتجمع فى الحفر .. ونذك الأرض
برجل واحدة ... نتسابق .. والذى يصل إلى الربعة يفوز بالجائزة ...
— ماذا نلعب الليلة ؟؟

وقبل أن نتفق يكون « شهابو » قد مرّ بصراخه وعبثه وأكوام العلب الفارغة
التي يربطها بالخيط ويحلى بها رقبتها ... وساقيه .. ورأسه فيصرخ :

- لاعبوني معكم .. « أنا المجنون ... آكلكم » .
لكن أصواتنا الراضية تسد في وجهه باب المشاركة ونلحقه بالعصى ..
والحصي .. فيهرب فاراً بينا نعود متضاحكين ... متسائلين :

- ماذا نلعب الليلة؟؟

- اللقصة ^(١) .

- اللبيدة ^(١) .

- لا .. نلعب « عماكور طاح في التنور ^(١) » .

وأخيراً يقترح صوت :

- نلعب « إحدية أبدية ^(١) » .

فوافق ...

نتحلق بدائرة ... فتمتد أكف البنات المحنّة جنباً إلى جنب مع أكف
الصبيان التي شققها البحث عن « القبابي ^(٢) » تحت « سيسان ^(٣) » البيوت
والشوارع .

نرص الأكف وننحني حتى تكاد رءوسنا المتقاربة تصطدم . وتدفع قماشة
بسبابتها الطويلة داخل فمها ... تخوضها فيه تقفز بها من كف إلى الآخر بحركة
دائرية وهي تغني بصوتها المبحوح بينما تغني شفاهاً بصمت كلمات الأغنية :
« إحدية أبدية .. ناصر دية .. حط الكور على الزنبور يا قناص .. قوم

(١) اللقصة .. اللبيدة .. عماكور طاح في التنور .. إحدية أبدية : كلها ألعاب شعبية كويتية .

(٢) القبابي : دود الأرض .

(٣) السيسان : أساس البيت تحت الجدران .

إقنص .. شبط خيلك شبطها .. باب الحلة وباب الشام .. مررت على
غرابين ... يأكلون سحتين . قلت يا عمى يا بو حسين ... كم يوم على
رمضان .. سبعة أيام والتمام .. وحاديها .. وباديها .. واضرب الخيل معاديها ..
خرجة برجة طاحت بالماى قالت تش ..

وتنتهى الأغنية .. وتكون السبابة قد استقرت مع نهايتها على آخر كف ..
وتبدأ المساومة :

- « تريد قرصة الحية .. أو العقرب ؟ »
والعقارب فى الليالى الحارة لا تتركنا .. عدو يترصد أقدامنا الخافية .. ويفرغ
سمه الأخضر فيها . ويفرق الجمع الأليف
« وشهابو » عقرب آخر . يثير الضجر والرعب أحياناً عندما يختبئ فى
الزوايا .. أو الأحياء المظلمة ويصرخ فى وجوهنا فجأة .. ويسعد حين يهز الأمان
المستقر فى نفوسنا .. وكان اهتزازاً مارقاً كالبرق لا يترك أثره .. ولا يحرمنا من
اللقيا رغم إصراره على تكرار فعله .

* * *

أما فى تلك الليلة ، فقد تغير كل شىء .. وحبلت النفوس الصغيرة برعبها
حملاً ثقيلاً .

سكننا الخوف .. تفشى فى صفوفنا كما يتفشى السل فى الرئة السليمة ..
فرضت ليالىنا الهادرة التى لم تعتد السكون الرتيب .. وعشنا فى انكسارنا نجتر
الذكرى .. ونختصر اللقيا على النهار .. حتى يذبل قرص الشمس .. ويفوح لونه
الوردى معلناً بداية ظلام الأمسيات .. نتوابع .. كل إلى بيته ... نسكن
ونفكر .. « بالجنى » الذى سكن « حوطتنا » فكدر ليالىنا وانتزع أماننا كما تنتزع
جدور السدره من أرضها . وتساءلت عيون الأهل وألسنتهم .. وخشيت فرقة

الصغار .. ربما هو الشجار الذى سرعان ما يذوب فى إناء طفولتهم ... لكنه قد
يمتد فيصل الكبار الذين قضوا سنواتهم أهلاً .. وأحباء ... يخشون الفرقة
والكدر لكننا لم نجرؤ : وكأن « شهابو » قد زرع موسى حادة فى حلوقنا نخشى لو
حاولنا البوح أن نذبح أعناقنا .. ولكن : إلى متى؟؟ والشوق لدفع الليالى
وأنسها ينغل كالنمل الجائع فى صدورنا .

- إلى متى؟؟

نطقها مسعود ..

وانفجرت الأسارير .. تلك هى المرة الأولى التى يصدر فيها السؤال إلى
الجماعة ..

إذن .. لا بد من الحوار الحازم .. والوصول إلى قرار ...

- لماذا صدقنا شهابو؟؟

سأل خالد .. وأجابت قماشة :

- ربما كان يكذب ...

وانبرى محمد .. صديقنا السمين .. وتلته أصوات :

- إنه يكرهنا ..

- لأننا لا نلعبه معنا ..

- لأننا نسخر منه ..

وأطلق فهد عبارته :

- ما رأيكم؟؟

وبشغف الغريق إلى قشة صحننا بصوت واحد :

- رأينا فى ماذا؟؟

قال والإصرار مرتسم على أنحاء الوجه الأسمر :

- نجرب الربعة !!

ودفعنا الهلع الذى احتكرنا دفعة واحدة ... فهبنا واقفين تتداخل أصواتنا
المرتجفة :

- لا .. نخاف .. الجنى .. الموت ... لا ...

لكنه رفع ذراعيه مهدثاً فبانت قرحته الجافة :

- أنا مستعد أن أجرب .. فقط ساعدونى ... هل توافقون؟؟

جالت عيناه تبحثان عن إجابة .. لكننا جميعاً كنا ملجمين فكرر قوله ..
وأكد أنه مستعد لهذه المغامرة من أجل أن تعود لياalina مشرقة فوعدهنا ...
وعدهنا أن نأتى فى الليل إلى الحوطة ... لكننا أخلفنا . كان الخوف واحداً
يترصده بنا .. لكنه اليوم أصبح توأماً ثانية الخوف على صديقنا فهد من الموت .
ورغم سنواته القليلة . كان فهد شجاعاً بإصراره وعناده .. وحلمه أن تعود
الليالى الفارة إلى مأواها . أخذ يتوسل .. لكن التوسل إلينا كقطرة الماء التى
تصب فى يوم قائف على الرمل ..

وبكى مرتين .. لكنه لم يلق شفيعاً ولا نصيراً .. بل تضاحكنا نهزاً من دموع
الرجال !!

وأخيراً هددنا بالانفصال عن الجماعة .. فخشيت القلوب انتزاع شريان من
شرايينها .
وافقنا .

* * *

اصطففنا عند باب الحوطة .. أجسادنا المتلاصقة لحماً وعظماً .. يُعلن
صوت ارتجافها مدى الهلع الساكن فى كل شعرة ..
و .. بدأ فهد يتعد .. وعيوننا تشيعه دامة مبهلة .. حتى اقترب من

الرابعة .. وكانت أرواحنا قد وصلت حلوقنا .

وصل ..

فاستدار نخونا ... وصار ظهره ذو العظام البارزة ناحية الرابعة .
وقف شجاعاً .. يرفع كلتا قراعيه إلى جانبيه وبدأ يعود إلى الوراء .. إلى

الور .. إلى الـ .. إلى الـ ...

ودوت الصرخة ... !!

وأحدث الدوى انفجاره ... قطارت السيقان تقلع التراب من مكانه ...
لامبالية بالأحجار والمسامير وقطع الزجاج المتناثر .

وتفتحت أبواب البيوت بعنف ... وانصفقت باحتجاج : ولم تهدأ
الأجساد .. ولا العيون .. عرفت الكرى بانتظار الصباح .

* * *

صاحت الديكة !

فتوقعنا صرخة تشق عباب الصمت الحرون الذى أزمنا .. أين الصرخة التى

ستعلن نبأ موت رفيقنا ؟!

ومتى تسحب الأمهات عباءتهن السوداء التى غزاها الاخضرار .. وينهمرن
على بيت أم فهد انهيار السيل نائحات مواسيات ؟؟ ومتى تخف أقدام الرجال
بنعالتها النجدية لتتحلق حول تحت الغسول يشارك بعضها « الغسال » فى لف
الكفن وتعطير الجسد الصغير بدهن العود وماء الورد ؟!

* * *

الصمت .. ولا شئ سواه ..

بدأ تناغم الأصوات التدريجى .. صوت الأحياء تنفس بعد أن أعلنت
أصوات الديكة عن انبلاج الصبح ..

لا شيء يثار : ولا حزن يعلن ..
واجتمعنا .. تحدونا رغبة ملحاحة لمعرفة مصير رفيقنا فهد ... تهامسنا ..
وقررنا أن نذهب إلى بيت فهد ... نسأل عنه .. فإن وجدناه اطمأنت
النفوس ... وإن لم نجده سنصارح أمه بالخبر المشؤم ... ولن ننسى أن نعلن خبر
« جنى الربعة » .

* * *

ما أن فتحت أم فهد الباب .. وانشق انشقاقة نصفية حتى لحنا فهدا مستلقيا
في حوش البيت على فراشه .. وقدمه اليسرى مربوطة بخرقه حمراء منقطة ...
دلفنا ... وحين تأكد من اكتمال عددنا صاح في وجوهنا :
- أيها الجبناء .. لقد هربتم في اللحظة التي كنت فيها بحاجة لمساعدتكم ..
تلعثمنا .. وتقدمنا نحوه مسرعين نتساءل :

- هل خرج الجنى ؟

- هل لمحتة ؟؟

- هل ..

وانزلقت عيوننا إلى قدمه المربوطة :

- هل قطع قدمك ؟

- هل .. وهل ...

الشيء الكثير من السؤال .. وأم فهد ترقب المشهد باسمه آمنة ..

- اجلسوا يا رفاق ..

تهاوينا على فراشه الذي بلله ندى الصباح ..

ابتسم لنا ...

- اسمعوا .. لقد كانت إشاعة أطلقها شهابوالمجنون .. وتعرفون بالطبع قصده ..

ليس هناك من جنى .. ولا من يحزنون .. لقد كانت صرختي صرخة ألم
واستنجد .. زجاجة مكسورة انغrust في قاع قدمي .. وكنت بحاجة لكم ..
لكنكم هربتم ..

قاطعہ مسباح بتوسل من يطلب العفو:

- ظننا الـ ...

- أدرى .. أدرى ...

وضحك حتى استلقى فبانت في ساقه قرحة أخرى .

الطاسة

سلمت أمى لجدتى الطاسة المعدنية :
- تفضلى هذه طاسة الحناء ... عجته البارحة .
وسألت جدتى :
- والسدر^(١)؟؟
وردت أمى باقتضاب وهى تتوجه إلى زاوية الغرفة :
- سأحنى البنات اليوم .
انحنت على صندوقها « المبيت »^(٢) وفتحته .. ففاحت منه رائحة بخور
مكتوم ، وروائح « دهن العود والورد » التى تستعملها أيام الأعياد ... وتذكر
بليالى الأعراس .
بيد حانية رفعت بعض الأشياء الراقدة فى الصندوق .. وسحبت الطاسة
الصغيرة .. ثم عادت وسوّت وجه المحتويات بحنان زائد ... بينما تنهيدة عميقة
مليئة بالشوق تصدر عنها وتعلن عن شىء مخنوق فى داخلها .
وحين لمحت جدتى الطاسة الصغيرة زفرت :

(١) السدر : نبات مثل الحناء ويستخدم بدل الصابون .

(٢) صندوق مبيت : نوع من الصناديق الخشبية الضخمة يستخدم للملابس المرأة .

- أف لهذا الوسواس الخناس .. أنا لا أدري لماذا تحملين « طاسة الذهب »
معك كلما خرجت !

وترد أمي :

- هي كل ما نملك في هذا العمر ... إنها مهري ...
وتلين لهجة جدتي :

- يا ابنتي .. كلنا نملك مثل مهرك .. فلماذا لا نحمله أينما ذهبنا ؟؟
وتقذف أمي جوابها المختصر :

- الحرص واجب يا أمي ..

فتؤكد لها جدتي :

- لو تركت باب بيتك مفتوحاً ... لما امتدت يد لشيء فيه .

وتصمت برهة بانتظار كلمة من أمي .. وحين لم تسمعها تلك أكملت :

- الدنيا أمان ... في السوق يتركون ما لهم ... وحليهم .. ويذهبون للصلاة
وأنت ! خائفة على طاستك !

عدلت أمي من وضع عباءتها الخفيفة فوق رأسها وهي تقول

- لو ضاعت فسيلومني أبو البنات حين يعود .

لم يعجب جدتي الرد ... قلبت سحنتها وسخرت من أمي

- الجنون ... فتون ...

دست أمي الطاسة الصغيرة تحت ذراعها الأيسر ... وفتحت الباب .

* * *

لاح وجه البحر الأزرق لامعاً ... ضاحكاً .. تدفع أمواجه زبدًا أبيض

تلتمع عليه أشعة الشمس فيبدو كخطوط من الفضة المصقولة ... وهب نسيمه

الرطب ذو الرائحة التي لا تخطئ أصلها ... يدخل إلى الرثين لطيفاً فيبعث في

الأوصال برودة تلطف الجسد وتخفف من حرارته . وانحدرنا عبر الشارع الضيق نحو « اليال^(١) » الذى بدا صافياً ... لامعة رماله ... مرتاحة حجارتها و « زبايطه » التى تستحم بالماء ثم تجف .

كان مرورنا فى الشارع الضيق ... عبر البيوت الطينية ذات الأبواب الخشبية المواربة فى الغالب ... ومن أحد البيوت يتسرب حوار رجل وامرأة ! وفى آخر يعلو حوار بقرة ... وبعض أصوات الديوك ... وتفوح من كل البيوت روائح طهى اللحم ... أو السمك ممتزجة برائحة الجو الرطب والتراب المبلل بنداوة تنبت أيام الصيف .

مررنا بيت « أبو صالح » مدت أمى ذراعها ... وطرقت بابه ... فالتفتت إليها جدتى :

— لماذا تطرقين أبواب الناس؟؟

بلا اهتمام بغضب جدتى ... قالت أمى :

— اتفقت مع أم صالح أن أطرق بابها لتلحق بنا . لديها بعض الثياب للغسل . اقتنعت جدتى ... وواصلنا .

استمر انحدارنا ... البحر حلم أزرق يمتد .. أمى ونحن خلفها كالبطات البيض ... تتقدمنا جدتى حاملة فوق رأسها « بقشة » الثياب ، وبعض الحاجيات اللازمة لحمام البحر ، وتحت ذراعها الأيسر تدفن طاسة الحناء . كانت جدتى قصيرة القامة ... ممتلئة .. لها وجه مربع عريض ينتهى من الجانبين بزأويتين ... قائمتين يلتقى ضلعاهما فى استدارة الذقن المائل دائماً للاحمرار .. يزداد احتقاناً حين ثور ! أو تضحك ! أو تعطس ..

(١) اليال : ساحل البحر .

كانت جدة طيبة ... حنونا تفرحنا زياراتها القليلة التي تحمل هداياها
من الرمان « والكنار »^(١) وحلاوة الديك . كما كانت تحمل الأمان معها
فأمى التي تتورم رعوسنا الصغيرة من ضرباتها . تمتنع عن فعل ذلك في وجود
جدتي ، فقد لقنتها ذات يوم درساً حين دخلت ورأتها ترضّ رأس أختي بالحائط
فتقدميه . سحبت جدتي عصا أبي الغليظة المعلقة على الحائط نفسه وانهاالت بها
على أمى ... وهى ترغى ... وتزيد :

- غياب زوجك يجعلك تقسين على الصغيرات فذوقى مايدقن .
يومها أعلنت أمى التوبة ... لكنها توبة مؤقتة ... ثم أصبحت جزئية ..
بحضور جدتي فقط ... وكانت تتوعدنا قبل زيارتها لنا :
- إياكم أن تقولوا لجدتكم إننى ضربتكم ... وإلا فسوف أذبحكم حين تخرج .
وكنا لا نفعل ... فجدي تحمينا مرة ، ولا تفعل فى عشرات المرات التى لا
تورنا فيها ... لكن عتابها لأمى لا ينقطع فى كل زيارة :
- ما بالك هكذا .. عصبية على الصغيرات ؟؟

وتبكى أمى :

- شقاء فى الليل ، وفى النهار .
- أنا أكره بيتك من هذه الشكوى المتواصلة ، كأن أحداً غيرك لا يفارقه
صاحب بيته .

ومسحت أمى دمعها :

- تمر الأيام علىّ طويلة يا أمى .

- وعليهم ؟؟

(١) الكنار : نوع من النبات الصغير .

لم ترد أمى على السؤال ، فاعتدلت جدتى فى جلستها . تربعت ... فبدت
كمربع نبتت له دائرة فى ضلعه الأعلى :
- أنت هنا .. فى بيتك ... ومع بناتك ... ورغم كل المصاعب أنت فى
أمان ... أمّا هم ! ...
وتنهدت ...

- فهم بين السماء والبحر .. فضاء كبير قد يتلعمهم فى أية لحظة .
ماج اضطراب فى وجه أمى وهمست :
- لو حصل له مكروه ...
وقاطعتها جدتى وهى « تتفل » كمن تطرد شراً :
- تعوذى من الشيطان ...
وتعوذت أمى بصوت يتر حزناً ... ويحمل مخاوف :
- الحياة صعبة ... تريننى أخاف على طاسة الذهب ... لا قدر الله ... لو
فقدناه ... لم نجد مانعش منه ..
وعلا نسيجها ... اقتربت منها جدتى وهى تقول :
- حياة بحر ... غوص ... وتعب .
قالت .. وسحبت تنهيدة عميقة من صدرها الذى يتر دائماً بالربو ... ثم
ربت على ظهر أمى بحنان وهمست :
- ادعى الله أن يعودوا سالمين .

* * *

وأجبنا حنان جدتى . فهو حنان ينبع من كفها التى تحمل الحلوى وحنان من
صوتها حين تحكى « حزاويها » الطويلة التى تنعش خيالنا .. وتبهج قلوبنا ..
وتقصر على أمى ليالى الفراق الصعبة .

وأحبينا كذلك حمام البحر أيام الجمع ... حيث ترافقنا في رحلة الطريق
الناعمة ... وفي البحر ... تداعبنا ... تغطسنا في الماء ... ثم تلتطخ رءوسنا
بالسدر الأخضر ، تفرك به شعورنا فترغى رغبة يتطاير زبدتها في الهواء
راقصا على نغمات صوتها وهي تغنى أغنيات البحر وتحكى لنا عن جدى الذى
كان يغيب عنها شهوراً طويلة .. لا تسمع عنه خبراً ... وتظل بانتظار موكب
البحارة بعد سفر عسير ... غائماً ... أو فاقداً لأحد غاصته ... أو رجالاته .
كانت الذكريات تلون وجهها العريض بالفرح ، والتذكريات غالية ...
والجدّ نامت عيناه منذ سنوات طويلة ... وأبى اليوم يرحل ، وأمى تبكى
وتضيق ذرعاً بحياتها ، وتخاف على طاسة الذهب التى هى رأس مالها لو تعكر
صفوح حياتها ... ولهذا تقسو علينا كلما عصف الخوف بقلبها ... أو وسوس شيطان
بصدرها فنتنظر زيارات الجدّة ، وأيام الجمع .. بالشوق ... وباللهفة ..
وبفرح الصائم بانتظار لحظة الإفطار .. حيث الحلم .. البحر الأزرق .

* * *

هو ذا البحر يعاقب العين .. هو ذا الأزرق الذى نستفيق على موسيقاه
الواهة ... ونراقب من الأسطح سفنه ... وأشرعتها المبحرة مع الرياح ... ونشم
عبرهوائه زفر الهامور والزبيدى ، ورائحة جدى الذى رحل ... وأبى الذى حمل
الزوادة ... وودعنا ... ليعود .

* * *

ويرتاح الجسد على الشاطئ ... ترتاح طاسة الحناء التى تلتطخ أمى بها
رؤوسنا ... فنبدو كالعجول الصغيرة الخارجة للتو من بطون أمهاتها ملوثة

بالدماء... ومنتظر على الرمل الدافئ.. حتى تشرب شعورنا اللون
الأرجواني... نجمع الأصداق.. والأعشاب المتفخة، نقفها بأسناننا
ونبصقها لترتد إلى أمها البحر خائبة خاوية.. بينا أمي وبعض النسوة يغسلن
الملابس والكنابل الصوفية والحصر... وزبد البحر الأبيض يتجمع فقاعات
تصطدم بأيدي النسوة التي تحرك الماء فترتد كارتداد الشفق إلى كبد السماء.

* * *

بدأت أمي بأختي الكبرى... وحملت أختي الثانية طاسة الذهب.. وحين
رصفت أمي شعرها بالحناء نحّتها جانباً... محرّضة إياها الا تغطس في الماء حتى
يجف الحناء تماماً..

ثم سلمت الطاسة الغالية لتحنى أمي شعر أختي الوسطى... وبين لحظة
وأخرى... كانت تلتفت إلى منبهية:

- انتبهى... شدى على الطاسة... إياك أن تفلت منك..
وبانتظار أن ينتهى دورى... عصرت الطاسة إلى صدرى حتى أحسست بها
تلتحم به.. وخشيت إن سحبتها يد أمي أن تسحب عظامى معها... وتنهدت
بفرح حين انتهت مهمتى وسحبت أمي الطاسة منى.
رقدت عليها كما ترقد دجاجتنا على بيضها، وأخذت تحنى شعري...
مطمئنة.. تغنى بصوت يتلع البحر صداه.. وكان يصلنى متقطعاً.. يشد الموج
البحر نغمة... وتشد أذنى نغمة.. ونغمت تنطلق نحو السماء.. ترتفع مع
الهواء... ولعل أمي يحملها الشوق إلى أبي الذى يستمع لأغنيات البحر...
وصت النهام.

وانتهى دورى...

وفكت أمي جدائلها السوداء... شعرها الليلى ينهال على كتفها وصدرها

وكأنه مل أسره . والتفتت إلى جدتي :
- هل تمسكين بطاسة الذهب حتى أحنى شعري ؟
لكن جدتي هزت ذراعاً دسماً في وجه أمي :
- لا .. لا تحمليني مهمة شاقة كهذه ... ظلي راقدة عليها ... فقد تبيض لك
ذهباً أكثر .

* * *

موجة ... موجة والبحر يرقص ... ونحن نتداعب ونترشق بالماء ...
وشعر أمي الطويل يتحنى بكفها خصلة ... خصلة ... والبحر غدار ..
مخادع ... وأمى سعيدة بشعرها ... والبيض من تحتها دافئ والموج يصفع
الرمل ... والرمل يصرخ ... وتنطلق صرخته .. لتتحرك الطاسة المعدنية ...
فتخرج من بين فخذيه كخروج الطفل من مخبئه ... وتصرخ أمي :
- الطاسة الطاسة ...

وتنتبه العجول الصغيرة .. وتتلفض جدتي ... وأمى واقفة ينسدل نصف
شعرها الخنى على كتفها .. بينما يتطاير القسم الآخر في الهواء ... وتصرخ بصوت
تتحدى فيه موج البحر :
- الطاسة ! امسكوا الطاسة !

هرعنا مذعورين من عالم الحلم ... والفرح ... صيادين بلا عذرة .. نحاول
أن نصطاد السمكة الهاربة ... التي تحمل في بطنها مهر أمى .. ورأس مالها
الماء يرتفع ! يرتفع وجدتي تسحبنا وتصرخ :
- ارجعن يا ملعونات : ستغرقن !

وحلم أمى !!
تصرخ أختي الكبيرة :

- الطاسة يا جدتي

فتشد جلدتي شعرها المحنى .

- الطاسة بالشيطان ... هل تغرقين !!

هو ذا حنان الجدة وخوفها على البطات ... بينما أُمى مفجوعة تصرخ :

- الطاسة... الطاسة !

والطاسة تبتعد فوق الموج .. خيال يهتز فوق صهوة حصان ... وأُمى ..

تصفق وجه الماء ... وتندفع لتمسك بها ، وجدتي تتبعها متثاقلة ، تسحب شحما

تشق به الموج الثائر ... ولكن الطاسة أبجرت ... وأبجرت ... مودعة صراخ أُمى

الذى صار نواحاً ...

عادت تضرب صدرها ... تولول ... بينما جلدتي حزينة الوجه ..

تعصر « ملفعها^(١) » الشاش الذى تبلل بالماء وتردد :

- لا حول ولا قوة إلا بالله .. لا حول ولا قوة إلا بالله ...

(١) الملفع : غطاء رأس المرأة .

لعبة فى الليل

فى النهار تتلون عيناها الطفلتان بلون الورد الأحمر كلما تلاقيا مع صورة الأم
تحضن طفلها إلى صدرها . تلك اللوحة الجبارة بمعانيها التى لم تعرف معنى منها
أبدًا . تهزّها اللوحة التى حفرتها أنامل أختها على الحائط المقابل . ولونها بالفحم
الأسود ، وملأتها حنانًا أموميًا هى لا تعرف كيف استطاعت أختها المحرومة أن
تجسده فى اللوحة ، رغم أنها عانت الحرمان مثلها .

وفى الليل .. تسهد العينان الطفلتان .. تتلوان بلون الليل الأسود ...
وجراح النهار الحمراء التى حمل بها صفاء العين .. فينزف صامتًا حين يهبط
الجناح الرمادى على الأرض .. فتغفو كل العيون . إلا عينيها .
من أين يأتى النوم؟؟ وهنا ... فى كل أوصالها تبدى الرعشة مثل شبكة
الدبوس الحارق .. والخوف لسان خشن يمتد إلى كل الجسد .. يبلله بالعرق
وبالدبق

- الآن تأتى .. بعد قليل ستأتى ... متى تأتى؟؟
هكذا تحدث النفس نفسها .. وتتوقع خطوات زائرة الليل . فربما تزور

المكان وهى مستيقظة فتراها العين وتصديق !

كيف تأتى الزائرة؟؟ وكيف تتحرك؟؟ وما الذى تسرقه؟

- إنها تسرق الكحل من العين .

إذن : لماذا يبقى الكحل الأسود ملطخاً عيون تلك المرأة - زوجة أبي - ولا تسرقه زائرة الليل؟؟ عيناها تتقرحان .. تشكو السهر .. تتوسل أن ترتاح لكن الخوف يرفض التوسل .. يوقظ الانتباه ... فكيف تنام ؟ تتأوه :
- زوجة أبي تأمرني .. تقول لي : نامي .. تهددني بأجنحة الخطر وتقول نامي .. فكيف أنام ؟ هل يستطيع من يتوقع الخطر أن ينام؟؟ فلتأت الزائرة إذن .. ولتحمليني إلى دنيا بعيدة مبهمة .. فمن يدري .. لعل زوجة أبي تكذب . إنها تكذب على أبي كثيراً .. فما الذي يمنعها من أن تكذب على ؟ وتصوري الزائرة بتلك الصورة .. وترعبي وهي تقول أنها ستأكلني ... لم لا تكون الزائرة حنوناً وتحب الأطفال .. فتحمليني إلى مكان أكثر أماناً ، وأعمق حناناً . وأطيب ارضاً ؟ وتحمل معي وجه أختي الحانية ولوحة الأم التي تحمل طفلها محفورة لا تمحوها ضربات الزمن على الجدران ... إلى دنيا لا أرى فيها وجه زوجة أبي الذي تصفغني قسوته طول النهار .. ثم يهددني في الليل .. فأنتظر .. وأتوقع .. وأتساءل :

- متى ستأتي؟؟ متى ستأتي؟؟

* * *

السماء صافية لا تزال .. مثل كل ليلة .. والنجوم تترامى بدلال هنا .. وهناك .. عرائس تنتشر كحبّات الماس تتلألأ .. تطمع كلها في نظرة يرسلها القمر المارد الممتد في العلياء .. رجلاً مغروراً .. يهر بريقه كل النجمات . فتمنى كل واحدة لو تكون تحت البريق . وعيناها تبرقان .. والخوف بداخلها رغم ما تتصوره عن الدنيا التي ستحملها إليها الزائرة .
تلين أطرافها قليلاً .. تحرك ساقها .. ترفع رأسها الصغيرة وتستدير ناحية « غرشة » الماء . فقد فأجأها عطش تكره أن يفاجئها في الليالي المقمرة حيث كل

شئ يُرى .. وهى تخشى أن تلمحها الزائرة فتخطفها ... تشير حركتها صوتاً ..
تتحرك أختها الراقدة بسلام قريبها :

- لماذا تقومين؟؟

- أريد قطرة ماء ... حلقى جاف .

تشير أختها ناحية « الغرشة » :

- الماء هناك ... قومى واشربى .

تهز أختها بلطف :

- قومى معى ... أنا خائفة .

تتنصب الأخت فى جلسة سريعة فوق فراشها المبلل برطوبة الليل :

- تخافين؟؟ ممّ؟

تستغرب سؤال أختها :

- ممّ .. وتساألين ممّ وأنت تعرفين؟؟

يبدو ضجرج فى وجه أختها راسمة اللوحة :

- أعرف ماذا؟؟

- قالت زوجة أبى إن ...

بحفة تجد كف أختها تغلق فيها الجاف :

- هُصْ ! لا ترددى هذا .. قلت لك ألف مرة لا تصدقى هذا الكلام .

فى محاولة للتبرير تبعد كف أختها وتؤكد :

- ولكن !! حمام جارنا وجدوه مقتولاً .

- قلت لك إن القطعة هى التى فعلت ذلك .

- و ...

وانبرى صوت أختها محتداً :

- ستقولين وبركة الماء التي جفت ! فأقول لك إن الماء تسرب في الرمل ..
وستقولين عن القدور التي لا نجدها ! فأؤكد لك أن زوجة أبي تعطيها لأهلها من
أجل أن يحضر أبي غيرها .. و ستقولين كثيراً مما تسمعين .. وأقول لك إنه
هراء .. وأكاذيب .

- ولكن ! الأجنحة ! الصوت الظلال !

- في الليل تكثر الخفافيش !

- خفافيش ! لكنى ...

تقفز أختها من الفراش بسرعة ومقاطعة :

- لكنك عطشانة .. وسأحضر لك .. ستشرين وتنامين ولن تفكرى بعد فيما
تقوله هذه المرأة .

تسحب الماء داخل فمها من طرف الغرشة .. تجرعه إلى جوفها محدثة صوتاً
أشبه بالركض على أرض أسمنتية . ثم تنطرح على وسادتها و .. عيناها نحو السماء
الصفافية .. وكلها يرتعش بانتظار الزائرة .

- « أم السعف والليف » ساحرة .. تأتي في الليل عيونها إبر حمراء ... وفيها
يتسع للآدمى .. فإن رأت طفلة لم تغف عيونها بعد ، فإنها تحملها إلى مكان
بعيد .. وتأكلها .

تزم عيناها حين تطرق أذنيها كلمات زوجة أبيها تلك .. تنكمش على نفسها
كقطعة من الصوف وضعت بطريق الخطأ في ماء بارد .. ترتعش .. وتتساءل :
- في الصيف فقط تأتي .. لماذا لا تأتي في الشتاء حين أكون وأختي في غرفتنا ؟

آه يا « أم السعف والليف » لو تعلمين كم سرقت مني الليالي .. فلم أذق طعم
رقادها ..

والليل المضيء بقمره ونجومه يأتي ويرحل .. وعيناها فتيلاً شمعة لا

تنطفئ .. ومتى اتبلج الصبح كثغر طفلة تفرح رغم حزنها .. وتلمح صورة الأم
المحفورة على الحائط تدمع وتقرب من الصورة .. تلامسها ببقايا الدموع
وتتساءل :

— لماذا لا تكونين أمي ؟ وأختبئ في صدرك كهذا الطفل ؟ عصفوة تبحث في
غابة الشوك عن الأمان ؟ لماذا لا يكون الليل مثلك حنيا يحيطني بذراعيه كما
تفعلين لهذا الطفل .. فيحميني من « أم السعف والليف » ؟

وحين تبعد أناملها عن اللوحة يكون الفحم قد لوّثها بلون الليل .. فتذكر
الليل هامسة :

— لماذا يأتي الليل ؟؟

والليل يأتي كل ليلة .. فمره يأتي .. نجومه الساحرات المغريات كأثناء تتدلى
تأتي ... وزوجة أبيها تنام مرتاحة قرب أبيها الذي لا يعلم بسر الساحرة . أو ربما
رآها حين كان طفلاً وهو الآن لا يخشاها . عيناها فقط تسهران .. تترقبان ... ثم
لا يلبث النهار أن يطلع .. فلا تدري إن كان السهد قد سامرها أم أن إغفاءة
حنوناً غمرتها دون أن تشعر بها .

وتأتي الساحرة أخيراً ..

النسمات تهب باردة رطبة .. تنذر بدخول الشتاء .. بعض الندى الخفيف
يتقاطر ... وثمة ضباب يحجب ضوء القمر .. وعرائسه المدللات الطامعات بليلة
عشق مع الرجل الأنيق .. والصمت يحثو على المكان ضيفاً ثقيلاً يعطى للأذن
فرصة أكبر لالتقاط همسة النمل تحت الجدار .. وهي تكره الصمت !
عيناها تتحركان كعيني ذبابة . ترصد كل الأنحاء .. هنا فراش أختها ..
وعن يمينها الفراغ ... وفي زاوية السطح الشرقية « كرسي خشبي » جدلت
أخشابه الرفيعة بشكل مربعات متساوية طولية ... وعرضية .. به فتحتان من

أعلى .. تنتصب في إحداها غرشة الماء .. وفي الثانية « برمة^(١) » أكبر .. في طرف الكرسي ربط حبل تدلّى حاملاً كأساً معدنية يشربون بها الماء ... أسفل الكرسي يرتاح سطلان يستقبلان الماء النازف من البرمة والغرشة وهو في الصباح ماء للدواجن رغم نقائه وصفائه من التراب الأحمر . في الناحية الأخرى علبة صفيح مبعوجة هي « بيت الراحة » الذي تستعمله هي وأختها إن فاجأتها الحاجة ! وفي الصباح تحمله أختها لتصبه عند « مدعاب » البيت فيختلط بتراب الشارع .

وهناك باب صغير يفصل مكانها في السطح عن مكان والدهما وزوجته . تغلقه المرأة عادة قبل أن تنام . ويفتحه والدها في الصباح الباكر منسلاً إلى الدرج المؤدى إلى حوش البيت .

في تلك الليلة لا يبيت أبوها في البيت . فعنده نوبة حراسة في السوق الكبير ... وزوجة أبيها تلح عليها أن تنام ... لكنها لا تنام .. تذكرها بالساحرة .. فلا تنام حتى عندما دخلت المرأة سطحها وأغلقت الباب .. انتبهت عيناها إلى أن الباب لم يغلق تماماً مثل كل ليلة .. بل كان موارباً ينعكس ظل شقه الطويل على أرض السطح .

السكون يطبق على المكان . فلا يثير نفساً لشيء وعيناها تنتقلان في اتجاهات السطح .. وتصل إلى الدرج الذي يبدو معتماً إلا إذا تحرك الضباب وانزاح عن وجه القمر .. فيبدو وكأنه مغارة عميقة . من هناك .. ينطلق الصوت : خشخشة أجنحة ولهاثاً متعباً . ثم رأساً يطل !!! يا إلهي .. لقد جاءت الساحرة أخيراً ..

وانكمشت .. صارت قطعة من الأسفنج تبللت ثم أحملت فجفت خمد فيها

(١) برمة الماء : آنية فخارية لتبريد الماء .

كل شيء إلا عينيها المصرتين على رؤية الساحرة !
الجسد القادم من مغارة الدرج يرتفع ... يستطيل . يتصب أخيراً كاملاً ..
ثم يمشى بحذر شديد ... لا يؤكد قوة حدثتها عنها زوجة أبيها ...
تأمل أكثر... الرأس كراسها ... الجسد جسد لا يختلف عن جسد
والدها .. إلا أنه أكثر شباباً !! الذراعان فقط مختلفتان ... هما جناحان ! لكن
حفيفهما كلما خطت الأقدام خطوة لا يدل على أنها جناح طائر ... فهي تعرف
حفيف الأجنحة حين يتطاير حمام الجيران ... أو حين يخلق « أبو حقب ^(١) »
مطارداً الحمام .

ممّ تراها مصنوعة أجنحة هذا الساحر؟؟ تتسع حدقة العين .. هي تريد أن
تعرف ... أن تتأكد أن الذى تراه حقيقة ... ها هما الجناحان ... مستطيلات
من « السعف » تلتصق بعشوائية على الذراعين . الجسد يمشى . يدنو من الباب
الموارب الذى يفصل مابين سطحها وسطح أبيها وزوجته ..
اليد الطويلة تمتد .. تدفع الباب الموارب ... يدخل بحفة .
- يا إلهى .. الساحر سبرى زوجة أبى وحيدة وسيسرقها .
لحظة أرادت أن تحس بالفرح . لأن الساحر سيسرق زوجة أبيها .. لكن
حناناً غريباً يثار داخل صدرها .. فيقتل الشعور بالفرح ... ويتمنى ألا يصيب
المرأة مكروه .. تحرك ساقيها بشجاعة ... وقبل أن تغادر الفراش تنصت لأنفاس
أختها تتأكد أنها مستغرقة فى نوم عميق ... وتنفلت إلى الباب الفاصل ...
تنصت !

لا تسمع شيئاً .. لا صوت ينبىء بصرير أسنان تمزق اللحم .. ولا آهة

(١) أبو حقب : النسر .

توجع .. ولا حركة مقاومة . تدفع الباب بحذر ! وتقع عيناها على أجنحة

السعف ملقاة على الأرض ..

يدور شيء في رأسها وهي تشاهد الساحر يشارك زوجة أبيها الفراش ...

طنين هادر ... وسؤال يتجرأ ويلح :

- ترى ! ما هذه اللعبة الليلية التي يمارسها الساحر مع زوجة أبيها ؟

مسافرة .. على جناح الأحلام

هم يقولون للسفر خمس فوائد .. لكنني هذه المرة ما جئت من أجل فائدة واحدة من فوائده . لقد ترددت كثيراً قبل أن أقرر . وكان هو يلحُّ . وفوائد السفر كثيرة .. لكنها لم تكن على البال ولا على خاطر . هدف واحد محدّد سأحمل نفسي معه .. وأسافر إلى ذلك البلد البعيد الذى كرهته . وكأنه اليوم يناديني .. كأنه يفتح فيه الأخضر ليشفطني داخله . وكأنني جنين يعصى على الأم أن تخرجه بطلقة أو طلقتين حاميتين .

وأنا .. أتردد .. ثم أوافق .. ثم أتردد .. وللسفر خمس فوائد .. لكنها أبداً ليست على البال ولا على خاطر .. سفرى معه فقط . من أجل أن أراها . أن أطمئن .. أن أثق بأن الرجل لا يكذب على وأنه لم يتصرف بغرته ذات مرة بشكل يسىء إلى .. أو إليه .. أو إلى علاقتنا معاً .. ألا يكون قد خان .. فالخيانة سكين حاد كفيل بقطع الخيط المتين الذى يربط حبيبين .. وأنا حبيبته . منذ تقدم لخطبتي وحتى هذا اليوم . وبعد مرور سنتين على هذه الخطبة . ونحن لا نزال نعيش حرارة الدقة الأولى . وهو يؤكد لى أنه عرف الكثيرات قبلى .. عابرات سبيل . إما للرفقة اللطيفة البريئة الخالية من كل سقوط أو إذلال أو مجرد التسلية وتمضية الوقت الذى يطول فى أوقات السفر .. وهذه فائدة أخرى تضاف للفوائد الخمس .. الفراغ بالنسبة للرجل هو ذلك الدافع الذى يغريه

للبحث عن رفيقة .. عصفورة تطير به بين شوارع بلدها وتكون له بمثابة الدليل الذى قد لا يحظى به لو كان ضمن سياحة مجموعة كاملة .. فالمجموعات تعكر الصفو بصخبها أو بمقاطعة الدليل من قبل هذا الذى يهرج .. أو تلك التى تستعجل من أجل الذهاب إلى السوق لشراء الهدايا والتحف .. والتعرف على المصنوعات الوطنية التى تحمل كل منها طابع البلد الذى تحمل فيه .. وهو ... زار هذا البلد .. أكثر من مرة .. وكثيراً ما تحدث عن عابرات السبيل فيه .. إنما هى .. هل معقول أن تكون عابرة سبيل وهو منذ خطبتي يراسلها .. وتراسله ؟ يأتى برسائلها يفتحها أمامى .. ليؤكد أن لا شىء يربطه بها سوى صداقة بريئة .. وإعجاب لا أدرى أيهما أكثر .. من طرفها .. أو من طوقه ..

لعبت الغيرة بصدري .. لعب الشك .. وتعاون اللاعبين على حبال الصبر .. والثقة .. بهلوانان لا يهدآن .. مثيران حيناً لحد الانفجار .. ومتأنيان حيناً يعطياتى فرصة للتفكير .. والتدبير ..

وهو .. يؤكد .. والسفر له فوائد خمس .. لكننى هذه المرة حين ألح أن أرافقه لأتعرف على تلك الصديقة ، لم تكن إحدى الفوائد الخمس على البال ... ولا على الخاطر .. الهاجس فقط أن أتعرف عليها .. أرصد حركاتها .. وحركاته .. نظراتها .. ونظراته .. لفتاتها .. ولفتاته .. فكم من إشارة أنبأت وكم من نظرة كشفت .. وكم من لفطة دلت على طريق الحقيقة .. وأنا قد وافقت أخيراً .. رغم أن الأمر بينى وبينه لا يتعدى الخطوبة التى امتدت سنتين .. كل أيامها ملتبه .. وسويعاتها ممتعة .. وسهراتها رائعة مليئة بالخجور .. ولم أكن أضيق أبداً بطول المدة .. لقد اقتنعنا معاً أن نبقى المدة طويلة ليتعرف كل منا على صاحبه معرفة حقيقية .. وليسبركلانا أغوار الآخر .. يتلمس أرضه .. يضمن له

مساحة غنية ، وحياة بعد ذلك في الأرض هنية ورضية .

و .. سستان .. ونحن حبيبان .. سعيدان .. لا يعكر صفو العلاقة سوى البريد الذى يحمل على جناحيه رسالة مطوية .. أو يأتي برسالة . وهى .. الا تستحى ؟ ألا تفهم بأنه رجل مرتبط بوحدة مثل ؟ يحدثها دائماً عنى .. وعن حبه الكبيرلى ... وعن اقتناعه بى .. وعن مثاليتى التى تصل فى بعض الأحيان حد التعقيد . والتضييق . أيضاً .. هو حدثها برسالة رأيته بأمر عيني .. عن قناعته التامة باختيارى دون كل فتيات العائلة الكريمة .. والجيران الأفاضل وكل بنات البلد . وحتى عابرات السبيل اللواتى صادفهن فى كل سفراته .. وللسفر فوائد خمس أو ست أو أكثر .. ولكن هذه المرة أنا لا أبحث عن فوائد .. أنا فقط أريد أن أرتاح .. أن أرى الصديقة التى ينقصها خاطبى .. وحبيبى دون النساء .. بالاهتمام .

هى ليست بالنسبة له عابرة سبيل .. بل أثيرة إلى روحه .. والاثيرة لا تنبت هكذا ابنة يوم وليلة .. الرجل مهما كان عابثاً غير قادر على إقامة علاقة ودودة بشكل سريع .. الأمر يحتاج لمدة زمنية .. عملية الإقناع ، والاقتناع صعبة .. خاصة فى أيامنا هذه التى يفتقر فيها الإنسان لأشياء كثيرة كانت فى الأيام السالفة صفات حلوة تلازمه ، الأوضاع تغيرت اليوم .. العالم تسيطر عليه ماديّات تثقله حتى أنها أثقلت الإنسان بما يحمل فحاول التخلص حتى من إنسانيته . يندر أن تجد الصديق عند الضيق .. ويندر أن تجد الأخ فى محنة .. فكيف وجد هو بين هذا الرتل من الناس صديقة فى وقت تبرأت حتى الصداقة من معانيها ؟؟

هل أصدق ؟؟

هو يحبنى .. والثقة التى ولدها لدى وهو يحمل رسائلها .. أو رسائله أخرى

بها أن تجعلني فتاة سعيدة .. تنام وتصحو ولا يشغل فكرها أو يؤرق سعادتها
شيء ..

لكن البهلوانين لا يهدآن .. وهو يؤكد أن لا سبيل لدحر هذين الشيطانين إلا
بالسفر .. وللسفر فوائد .. ست أو سبع .. لكنني هذه المرة لا أطمع في فائدة ..
ولا بمتعة .. كل ما يهمني أن أتعرف على هذه الصديقة التي اختار حببي أن تظل
صديقة حتى وهو يربط اسمه باسمي .. ومستقبله بمستقبلي .. بل وحياته الغالية
بحياتي التي ما فكرت أن تكون لأحد سواه .. وعليه .. فلا بد من الموافقة بعد
كل المحاولات التي يحاولها .

وأنا .. مترددة .. خائفة .. رغم غيظي وشكّي .. فإنّ هذه النار أرحم ..
فقد تكون بانتظاري نار واقع تحرقني .. قد أكتشف أن العلاقة غير ما هو واضح
لي .. وقد .. والشك في هذه الحالة بعيداً عن الواقع أرحم .. أن نحس بالنار
خير من أن ندخلها .. أن نتصور حريقها خير من أن نلقى بأنفسنا إليها مدعين
الشجاعة والبسالة .. فالنار حارقة .. وأنا جربت لمسها الفظيع .. لا تزال آثار
الحروق واضحة تشوه بعض مناطق جسدي .. تجعلني ألعن فاعلها كلما تحسستها .
وحين أخبرت خاطبي ذات يوم عن أصلها .. وفصلها .. ومصدرها .. حزن
لأجلى .. ومسح على الحرق القديم بخنان ورقة وكأنه يخشى أن يصحو الألم ثانية
أو تلسع يده ذكرى حرارته التي ماتت .. يومها وعدني بإخلاص شع مع عينيه
الرائعتين . بأن يعوضني عن كل ما عانيت .. وأن تمسح يده على جراحي وألا
يسبب لي جراحات جديدة .

وهذه الغيرة ! وهذا الشك ! أليسا جراحات تلسع راحتي وتقلق أمني ..
وتعكر صفو المستقبل الذي أحلم وأحلم به كأحلام نبتة صغيرة بيوم ثمرها
الوفير؟؟

هذا التردد كله .. كان خوفاً من مجهول .. خوفاً من أن تكون هناك حقيقة ما أفقد من أجلها الحبيب الذى أنام كل ليلة على سرير قلبه وأتوسد عروقه .. وأستمع إلى عزف نبضه يردد اسمى ويعلن وعده الراسخ بأن أكون وحدى ملكة فيه .

كان لا بد من الموافقة .. أن أخطو نحو الحقيقة المجهولة فيما أن أدركها وتهدأ نار قلبي .. أو تطفئني فينطفئ حبه في قلبي إلى الأبد . لا بد أن أشعل الحقيقة الخامدة .. أو تشعلني أو نشعل معاً .. نحترق معاً .. وينتهي كل شيء .
أكدت له موافقتي .. ولحمت في وجهه تعبيراً راضياً . هل كان انتصاراً ؟ أم فرحاً ؟ أم راحة ؟؟ .. لم أحاول تصنيف هذا التعبير ، الأمور لا تصنف الآن . هذا الوجه الذى أراه كل يوم .. سأراه هناك كل لحظة ، وثانية .. سأتابع كل رفة عين . وكل حركة شفة ، وكل .. وكل .. وكل .. آه كم ستضيع من عمرى لحظات ألاحق بها وجهه .. أو وجهها .. كم سأحرم نفسي متعة النظر إلى السهل ، والبحر والشجر ، والعصافير ، والزهور .. ووجوه الناس التى لا أعرفها ، والتى قد تمتعني ، وتبهرنى ، فأستشف منها شيئاً ، والأرض التى تمتلئ بتدكارات الخطى ، وأوراق المارة ، وبقايا متاعب النهار ، ودمعات بعض الأطفال الذين تعثرت أقدامهم فى طرف الرصيف .

ويقولون للسفر فوائد .. ومتعة .. وأية متعة تلك التى سأحسها وأنا أجند نفسي « رجل مباحث » يتابع كل همزة ولفظة ؟
ما أصعب أن يتسرب الشك إلى القلب .. والفكر كم هو معذب لا يعرف الرحمة ولن يطفئ نار عذابى إلا السفر .. وللسفر فوائد ست . أو سبع .. لكنها ليست على بالى ، ولا على خاطرى ، من أجل فائدة واحدة لا تمت لفوائد السفر بصلة .. سأسافر .

كانت الغيوم غلالات تتسابق فوق قرص الشمس المندثر تحت كآبة المساء
كأنه في لحظة عشق ترتخي لها عيناه خجلاً .. والأرض قبر يمتد تحتي يلتهم في
داخله الجبال .. والوديان والمساكن التي تعشش فيها رطوبة النهار . وداخل
المساكن أناس تتنوع ألوانهم .. وأشكالهم .. وجنسياتهم . وأعمارهم . وتنوع
أحلامهم ، وأمانيتهم ، تنوع مآسيهم وأحزانهم .
عالم أراه من الأعلى بعيداً .. بعيداً .. صغيراً .. صغيراً وحين تهبط الطائرة
سيكبر هذا العالم . يمتد .. وتتلوى طرقاته . وتنشق أرضه عن ألف سر وسر .
وأنا

سر واحد أريد أن تنشق عنه أرض الشك التي تأكل داخلي .. وتجرح
جرش الحصى تحت عجلات المركبات .. فتى يسقط القناع عن وجه الحقيقة ؟؟
ارتجفت .. حين دب خاطر في ذهني .. ماذا لو سقطت الطائرة ؟ حادثة
يهتز لها العالم .. وتهز أهل الضحايا .. وتمتلئ صفحات الجرائد بالتحليلات
والتخمينات .. وينبرى أصحاب شركة الطيران يؤكدون سلامة أجهزة
الطائرة ، ثم يمضي الحادث يموت من يموت .. وتنساه القلوب .. تنسى حتى أنه
لم يجد له قبراً يحتوى جسده على هذه الأرض الواسعة .
صعب أن يتعلق الإنسان ما بين الشك والحقيقة ! ومرعب أن يتعلق ما بين
السماء والأرض . ولحظة الرعب جسورة تدق أبواب الذاكرة .. توقظ فيها
ألف احتمال .. واحتمال .

ماذا مثلاً - لو كان حبيبي شجاعاً في لحظة وقوع الطائرة . واستل حزام
النجاة . وهبط بسلام إلى الأرض دون أن يفكر بي ؟ الروح غالية وعند لحظة
الخطر لا يفكر الإنسان إلا بنفسه . ولو كنت مثلاً مكانه وملكت الشجاعة -
التي أفقدها منذ طفولتي - وحركت جسدي الذي بالتأكيد ستشله اللحظة

وسحبت حزام النجاة وفكرت بالهبوط . فإننى بالتأكيد لن أفكر بحبيبي . بل سأنفد بجلدى ، وروحي ، من تهلكة لا محال منها . وحين أنجو .. سأبكي .. سأبكي .. حتى تتقرح عيناى . وسأحمل تأنيب الضمير معى حتى لحظات عمرى الأخيرة . رغم أنه لا مبرر لتأنيب الضمير ، فلحظة الموت تفرض الأناية .

أما هو .. حبيبي .. فإن صدَفَ وأنقذ نفسه . وهوى إلى الأرض ، كطائر شارد . فماذا سيفعل ؟؟ هل سيفكر بى ؟ هل سيؤنبه ضميره ؟ أو سيحمل نفسه إلى طائرة أخرى ويكمل سفره - ذا الفوائد السبع أو الثمانى - إلى بلد صديقتة ويزف لها بشرى نجاته بأعجوبة بينما يحمل لها خبر موتى المؤسف ؟؟

وهى ؟ هل ستفرح ؟! هل ستغزوها الأمنيات الكبيرة أن تحتل مكانى فى قلبه ؟ وفى حياته كلها التى شاءت الصدَف أن تبقى .. وأموت أنا ؟؟ آه من هذا الشك اللاذع المعبذب الذى حرمنى متعة النعاس .. بينما جفنا حبيبي ينطبقان بأمان . وسلام ، وهو يسند رأسه إلى ظهر المقعد المريح . حاورنى شوق .. فهل أحاوره ؟ هل أطلب منه أن يعلمنى الحقيقة الثابتة حتى أواجه الصديقة وأنا على ثقة تامة من أننى لست مخدوعة ! أو ساذجة يحملنى حبيبي إلى واحدة أخرى جمعته وإياها صحبة طويلة ؟

هل ستكون بانتظارنا فى المطار ؟ وكيف ؟؟ هذا يعنى أنه أبرق لها .. كلمها بالهاتف .. دون أن يخبرنى بذلك .. وإن لم تكن بانتظارنا فهل سيتصل بها لحظة الوصول ؟ أم سيخصص الليلة الأولى لنا .. نسهر معاً .. و . قد تتفجر أشواقنا فى لحظة فيقرر أن يتم زواجنا هناك فى الليلة نفسها ؟

ألثفت إليه .. يغط فى نوم عميق عذب .. وجهه هادئ برىء من كل تفكير .. أو هو اجس . حتى شارباه هادئان كسيفين لم يمارسا القتل أبداً . مددت

كفى الملية بالخواتم .. كم اعترض على هذا الأسر الذى يحرمه متعة العبث
بأناملى .. وكم رجاني أن أحررها من ثقل لا مبرر له .. لكننى كنت فى كل مرة
أصر على أن تظل خواتمى فى مكانها وقد أصبحت جزءاً من يدى .
- هذه دبله الخطوبة التى تحمل اسمى .

- طيب .. لنقل إنها موضعة ضرورية .
- وهذا خاتم أهداه لى أبى يوم حصلت على الشهادة الثانوية وأنا أعتر به .
- لا مبرر للاعتزاز ما دمت قد حصلت بعد ذلك على شهادة جامعية .
- وهذا خاتم كان فى بنصر أُمى .. أهدته لها جدتى التى ورثته بدورها عن
أُمها .. التى ورثته عن جدة أُمى التى ... وهى تحلفنى أن ...
- فهمت . فهمت .. أن يظل بإصبعك بركة .. قد يبقى حتى سابع أو ثامن
حفيدة !

- أما هذا ...

- أعرف حكايته فهو تذكار من معلمة الحساب التى كنت تحببها وتحبك .. وقد
قدمته لك فى عيد ميلاد من أعيادك السنوية .. عجيبة رغم تقديرى لعقلك
وفهمك إلا أنك لا تزالين كالطفلة تتعلقين بالتذكارات القديمة .
- وهذا ...

- حفظت ! هذا خاتم ماسى تخشين عليه من الضياع .. لكننى أذكرك بأنه توجد
خزائن وأدراج لها مفاتيح .. صنعت خصيصاً لحفظ الأشياء الثمينة ..
ولكننى ...

- ولكنك تغار من خواتمى هذه ..

- تسمينها غيرة .. ولكنها فى الحقيقة رفض لامتداد عصر الحريم .

* * *

وامتد كفى يحمل آسريه .. مسحت على كفه برقة ، ارتعش ، وانفتحت
عيناه انفتاحة وردة شهية تسأل عما أريد . وفي اللحظة نفسها تسألان عن
الزمن .. كم مضى ؟ وكم بقى !

قلت :

- هل ستكون صديقتك في المطار؟
ابتسم ابتسامة كبيرة وكأنه يحذرنى أنه يفهمنى :
- لا ..

- هل ستتصل بها بمجرد وصولنا إلى الفندق ؟
قال بصدق أليف إلى روحى :
- كما تشائين .

- لا .. كما تشاء أنت .

قلت هذا وفي نيتى أن أستشف مدى اهتمامه بها ولهفته على رؤيتها ولأؤكد له
أننى لا أحمل لها أى نوع من أنواع العداء . ولكنى فى داخلى كنت أخشى
الصدمة إن جاء رده محققاً لهذا الخوف الذى يعاركنى . لكنه - وكأنه قصد
هذا - أكد لى أن الليلة هذه ستكون لنا نحن الاثنين فقط . والصباح يوم آخر
ولا مانع من أن تشاركنا فيه الصديقة .

جاءت كلماته دفقة باردة تذيب حرارة الهاجس اللعين ، وفى تلك اللحظة
فقط شعرت بأن عيني القلقتين قد ذابتا .. واشتهتا نوماً دافئاً يختصر المسافة ما بين
السماء والأرض .

* * *

فى بهو الفندق !

وحدى أنتظر ..

تعمدت أن أكون بكامل زينتي .. قبل أن أمر على غرفته . وأطرق بابها .
حين فتح كان وجهه مغطى بالرغوة ، وماكينة الحلاقة بين أصابعه تستعد
لابتلاع شعر ذقنه الذى نبت مسافة السفر الطويل .

رحب بي .. بينما كنت غير مرحبة بهذا الاستعداد الذى أثار لدى غيرة
طفحت حتى وجهي . لماذا يخلق ذقنه ؟! هل يرغب فى أن تراه نظيفاً ، ناعماً
أنيقاً ؟ وماذا يهمه فى ذلك ؟ أو ... ماذا يهمها هى بالذات ؟؟

ترك الماكينة على طرف المغسلة .. واقترب من وجهي .. حضنه بين كفيه
الرطبتين .. وتصورت كم يكون جميلاً لو كانت له ذقن بيضاء .
اقترب من وجهي ليقبله .. لكننى أبعدته :

- حاذر .. ستلطح وجهي بالرغوة :

تنبه .. وضحك ، وسارع يسحب المنشفة . كنا لا نزال عند مدخل الباب
الذى أغلقه بعد دخولي .. نقف أمام باب الحمام ، مسح الرغوة بعنف . ورغم
فرحى بما فعل إلا أننى ذكرته :

- وذقنك ؟؟

بكل بساطة أجب :

- لن أحلقها .. ليس الأمر مهماً ..

- إذن ! لماذا بدأت ؟؟

- وجدت نفسى وحدى .. قلت أتسلى بذقنى .. هل من العيب أن أتسلى

بذقنى ؟؟

- لا ..

واقتربت منه :

- هل أنا جميلة ؟؟

وكنـت أعرف أنى عادية الجمال ..

- أنت فقط .. حبيبتى .

ولمـع انبهار شهى فى وجهه كانبهار النقطة الآتية من السماء .. وانشقت فى شفتيه أشواق كانشقاق الوردـة حين تصرخ فيها نشوة البلوغ .. وانبـلج صبح من عينيه ، فرأيت أمامى مهرجان ألوان يطل .. حاملاً فرحه ، وزغاريدـه والتقت اليد باليد .. والحت فى رأسى أنشودة موسيقاها سؤال يتردد .. متى يلتصق الخد بالخد وحين أقرب أحسسته جمرأ ملتهبأ .. ضمنى إليه كقطة أليفة .. فذبـجنى سـعير شوق ، وتفتحت أبواب حلم رحب .. وأنا .. أغـط بين يديه ، وقد تكومت كل روحى فى نقطة واحدة يهرسها بين شفتيه .

* * *

وحدى ..

أجلس فى بهو الفندق .. أنتظرها .. أنا التى أصـررت على أن تعرف بوصولنا .. منذ اللحظة الأولى .. فهذه الليلة لن تكون هادئة إن لم أرها . لن يكون بمقدورى أن أعيشها لحظة بلحظة .. كيف لى أن أفرح ؟ وأقطع الشوارع المبللة بعرق البشر ؟ وأن أسهر فى ناد خافت الأضواء مثير للتقارب .. والعناق .. بينا ذهنى مشغول .. مشغول ... مشغول ..

ستأتى الآن ! سأراها وأطمئن .. ربما تعمد أن القاها قبله .. قلت له :

- أنا لا أعرفها .. فكيف سأتعرف على وجهها بين عشرات الوجوه ؟

أكد لى وهو يبعد خصلة شعر التصقت بخدّى :

- أنا متأكد أنك ستعرفينها .

ما سر اقتناعاته هذه ؟ هل يعرفنى ذكية لهذا الحد ؟ أم أنه واثق من أنى أعرف اختياراته ؟ أم أنها هى باهرة إلى الحد الذى سيلفت نظرى ويجعلنى أغادر

مقعدى لاهثة إليها ، أعرفها بنفسى فتعرفنى؟؟
هذا الرجل يحيرنى بقدر ما أحبه ، وهذا الموقف الذى وضعنى فيه موقف
حرج لا أحسد عليه . لكنه ما دفعنى إليه إلا ليربحنى .. ليعطينى فرصة اكتشاف
أنا بحاجة لها .. وحدى وليس معه .

ما زلت أحمل رعشة الذوبان الذى سبحت فيه قبل أن أهبط الطوابق
السته ، وأنتظر فى هذا البهو الرخامى الملىء بالبشر .. وجوه .. وجوه ..
وجوه ... وأجساد ... كلها وجوه تعيش .. تأكل .. تنام .. تعشق ..
وتضاجع .. وتنجب .. لتزدحم هذه الكرة الأرضية ببشر يتشرد بعضهم ..
ويموت بعضهم .. ويتقاتل البعض مع البعض .. ويأكل البعض بعضه
الآخر .. ويكثر المتسولون ، والجوع .. وتتخم فئة على حساب أخرى ..
وتطمئن فئة على حساب قلق الفئة الأخرى .. وتنمو حياة على قبور ساكنة . عالم
متحرك .. لا يدع الفرصة لقدم أن تمتد أكثر من خطواتها .. وزحام عند مكتب
الاستعلامات وعند شباك المكتبة المتروية فى ركن .. وفى البار الذى يفرغ معبولة
فى أجواف الظمأى .. وعند المصعد الذى لا يأتى إلا إذا نفذ الصبر بالكثيرين
وتذكروا أن هناك درجات سلم مئوية العدد . فيفضلون لهاث السلم على وقفة
انتظار .. عالم يستعجل اللحظة .. يريد أن يعيش حياته دقيقة بدقيقة ..
عمقها .. طولها .. عرضها ..

وأنا ...

على المقعد العريض .. أتابع الوجوه النسائية التى تدلف .
هذه واحدة .. ربما تكون هى .. إنها تتلفت .. بلا شك هى تبحث عن
وجهه .. عن صديقها الذى ترأسله وهو مرتبط بى .. ويحببى .. واختارنى من
بين عشرات البنات .

طويلة .. فارعة .. نخيلة الساقين .. عنقها طويل يمتد كعنق هدهد .. ومن
شحمتي أذنيها يتدلى قرط على شكل ثعبان .
لا .. ليست هي ..

لماذا أكدت لنفسى هذا؟؟ وكيف عرفت أنها ليست هي حتى قبل أن تلتقى
برجل ملتح وتشابك يداهما؟

حبيبي لا يفضل النحيلات .. أنا .. وهو فى حوار دائم حول عملية الحمية
التي أتبعها . فهو يحب الاكتناز .. خاصة فى الساقين .. وهذه ذات ساقين
نحيلتين !

هل حقا بحث فى الصديقة عن ساقين جميلتين ؟؟
لا ..

هو لا يفكر بهذا الشكل التافه .. حين اختارنى لم يقس مسافاتي .. كان
اللقاء أعلى من كل مساحة الجسد .. حبيبي يعرف كيف يختار .. ربما هذه !!
دخلت تقسم شعرها قسمين ، يتنفس كل قسم إلى ناحية كأنه فى حالة
غضب من رفيقه . وقد ذكرنى وجهها بوجوه الساحرات المرسومات فى كتب
القصص المدرسية .. قصيرة .. ملابسها تصرخ مستغيثة من لحم تكوم فى الأمام
وفى الخلف .. وقد ضيق عليها سبل الحركة .. فبدا بروفيل جسدها وكأنه علامة
سؤال ذات زائدة . دارت فى البهو .. مرة .. مرتين .. عيناها تنتقلان من وجه
لوجه .. حتى عندما اصطدمتا بوجهي .. تحركتا بلا مبالاة إلى الناحية الأخرى .
ليست هي .. بالتأكيد .. ليست هي .. لو كانت هي لعرفتني .. لا شك أنها
ستكون ذكية .. وإلا لما صادقتها ، فحبيبي يكره النساء الغيبات . لو كانت هي
لفهمت أننى فتاة أجلس وحدى ويبدو على قلق الانتظار .

وابتعدت .. وهى تعانق ذراع امرأة تكبرها بكثير ويتكوم شعرها فى الخلف
على شكل كعكة مصنوعة بالزيت !

نقلت بصرى إلى مكتب الاستعلامات .. وقد تأتى وتقف هناك .. فتصل
بهااتف غرفتى .. أو .. غرفته . وسيرة عليها .. ثم يهرول إلى البهو .. سيراهما
قبلى .. وتضيع .. على فرصة التقاط الشارة الأولى عن أول لقاء .

ما الذى جعلنى أضع نفسى فى هذا الموضع البائس ؟ احس أن القلق قد
أكل نصف حيويتى .. وقد جئت فارة من ضغط العمل .. وضغط الشك
والغيرة . وللسفر فوائد . تسع أو عشر .. وأنا على العموم ما جئت إلا من أجل
فائدة محدّدة .. اريد أن أعرف .. أن أتأكد .. أن أدخل جنة الزواج وأنا مؤمنة
كل الإيمان بأن الجنة ما وجدت إلا من أجل كل اثنين يسلكان الطريق السليم
حين يقمان علاقة ودودة .. ويمتزجان بحب أساسه الإيثار .. وربّانه العقل .

وعقلى شارد ! .. متى تأتى ؟؟ تأخرت خمس دقائق .. رصدت خلالها
أكثر من خمسين وجهاً .. لم أستطع أن أثبت واحداً منها فى ذهنى ، فذهنى لا
يحمل إلا أوصافها التى أعطاها لى كما أرادها هو .. لكن الرجل أحياناً لا يكون
قادراً على إعطاء الوصف الدقيق .. ذلك أن نظره للمرأة تختلف عن نظرة المرأة
لها .. فما قد يلفت نظره ويركز عليه .. يحتمل ألا يثير عند المرأة شيئاً .. فرق كبير
بين نظرة الرجل للمرأة .. ونظرة المرأة للمرأة .. تماماً كالفرق ما بين نظرة
رجل .. ورجل للمرأة .. هناك رجل يهيمه الغلاف الخارجى . الزخرف الذى
تثيره ملامح .. وعطر .. ولباس .. بينما آخر يبحث عن البطانة داخل
الغلاف .. فجمال المرأة فى نظره يكمن فى عمقها .. فى سرّيتها .. والرجل دائماً
يفصف المرأة حسبما يتعامل معها .. فالرجل الذى يفضل المرأة «الانترناشال»
التي تبيح نفسها من أول لحظة سيختلف بالطبع وصفه عن وصف الرجل الذى

يفضلها صعبة .. وذات كبرياء يعجز كل رجال العالم عن كسر طوقه .
أما المرأة فهي حين تنظر لامرأة سواها .. إنما يهيمها بالدرجة الأولى أن تتأكد
إن كانت أجمل منها .. وأكثر منها أناقة .. وتتأمل ذوقها .. ملابسها ..
عطرها .. تسريحتها .. مجوهراتها ..

يدى تداعب يدى .. أنزع الخواتم واحداً واحداً .. فتسفل بسرعة وكأنها
تريد أن تحقق لحايطي أمنيته .. "أنظر إليها .. و .. أبدل أماكنها .. لا يرضيني
التبديل .. فأعيدها آمنة .. وأحس بها تنزلق إلى مكانها وكأن شوقها قد اعترم
لمجرد أن أنتقل لحظة .. أو .. كأنها ترضيني أنا هذه المرة .. وتؤكد لي أنها مخصصة
ليدى إلى الأبد .. خاتم واحد ظل مكانه لم يتبدل .. اللبلة .. ظلت لاصقة
بلحم الأصبع التصاق المشيمة بالرحم .

لماذا يضيق بهذه الخواتم ؟ نبهني أكثر من مرة .. كلما حاول عناق كفى
اصطدمت أصابعه بها .. هل هذا حقاً مشير للضيق ؟

وأنا أضيق .. أضيق بجلستي .. هبط بي المقعد الاسفنجي حتى تصورت أنه
سيتساوى بالأرض وعيناي كعيني ذبابة تتحركان بسرعة هنا .. و .. هناك .. ها
هى واحدة .. تحمل بيدها علبة ملفوفة بورق أنيق محلى بشريط أخضر .. ويبدو
أنها هدية لشخص ما . الفتاة جميلة .. يبدو أنها خفيفة الظل .. ثغرها باسم
دون عناء .. أو إصرار .. وعيناها واسعتان صبغت جفنها الأعلى بلون أخضر
تكون الشريط .

تتلفت .. هل تكون هى ؟؟ ربما جاءت تحمل لى هدية التعارف الأولى ..
أنا نفسى أحرص على هذا التقليد حين أقوم بزيارة أولى لعائلة .. أو زميلة ..
وهذا شىء يعجب خايطي .. وهو يثنى عليه دائماً . وهذه تحمل هدية .. ربما
أحب فيها الشىء نفسه . إذن .. لم لا تبحث عني ؟ لم لا تنقل بصرها بين عباد

الله الغاطسين فى المقاعد ينتشر فوقهم دخان السيجار والسجائر ويشكل طبقة
غبراء بلون الرماد .

لن أتحرك ..

لن أتصدق عليها بلهفتى .. ولا يجب أن أسعى إليها .. هى التى يجب أن
تبحث .. وهى التى يفترض أن تسعى إلى .. يجب أن تعرف منذ الوهلة الأولى
أننى أنا الأهم فى حياة الرجل الذى هو صديقها وعليها أن تكون بشوق للتعرف
على .. لا أنا . ولكننى .. ما جئت إلى هذا البلد إلا من أجل أن أتعرف
عليها .. أن أطمئن .. أن .. وأن .. وأن .. فلم أضحك على نفسى .. وأتحرق فى
مقعدى الداوى تحتى ، وقد بدأ مغص شديد يعبث بأمعائى .. ودقات قلبى
تسرع .. وتسرع .. فى نبضاتها .. بانتظار اللحظة الحاسمة .

ينبعث صوت طفل من بين الأصوات .. هكذا هم الأطفال دائماً ..
رغم صغر سنهم ، إلا أن صرخة واحدة منهم تكفى لإيقاظ جيش نسى واجبه
الوطنى .. ونام على الحدود .. جاء صوته عالياً هاتفاً كراية تعلن كبرياءها لحظة
التحية .. أو النصر .. ركض نحو المرأة التى تحمل الهدية ! فتحت ذراعها ..
وحضنته بلهفة تمردت على كل ما تحمله .. حقيبتها والهدية .. فتساقطت ..
وبادر أولاد الحلال من الرجال ... كل يحاول أن يثبت أدبه .. وذوقه ليرفع
الأشياء .. فقد ينال بسمه رضا .. تكفيه لأن يفاخر بها أمام الغير .

إذن ! ليست هى .. وتبع عناق الطفل عناق سيدة ترتدى ملابس سوداء
وقد انفجرت ببكاء مفاجئ وهى تعانق المرأة الزائرة . ثم تشد على يد الصبي
الذى حمل الهدية .. وتوجهوا إلى باب الخروج .

وأنا .. متى أخرج من هذا الموقف . بدأت أضيق ! ووجودى فى هذا المقعد
السلب لا مبرر له .. خلعت نفسى منه بصعوبة .. توجهت لمكتب

الاستعلامات ، ورفعت الهاتف .. طلبت رقم غرفة خاطبي .. أعلنت له رفضي لهذا الانتظار فأكد أنه سينزل حالاً .

حين استدرت بعد أن علقت الساعة على صدر أمها الجهاز . تصافح وجهي بوجه أليف .. أعرفه ، أعرفه جيداً .. وتلاقت بسمتان .. وتزاوجت فرحتان .. وتهللت تحيتان ، وشعت نجمتان . لامعتان .. هتفت وسبابتى تشير إليها :

- أنت ...

وكانت تسبقني بالسؤال ذاته :

- أنت

وتعانقنا .. لا أدري كيف ؟ ولماذا !

كان لها وجه صبياني .. فك بارز صغير . وعيناها بريثتان كعيني طفل لم يؤذ عصفوراً .. ولم يخربش على جدران بيتهم الجديد ..

حين تباعدنا استعرضتها في ثانية ...

عادية الطول .. ممتلئة بعض الشيء .. ولكن في تناسق يدل على أنها تمارس رياضة ما ! ترتدى بلوزة رمادية مخططة بخيوط حمراء رفيعة .. وتنورة حمراء لها فتحة صغيرة في جانبها الأيمن .. ومن صدرها تتدلى سلسلة ذهبية رفيعة كهمسة خجولة .

لم أحاول أن أسألها كيف عرفتني ؟ لاني أنا أيضاً عرفتها .. نفس أوصافها التي تركزت في ذهني .. ولا بد أن أوصافي كذلك صحيحة .. وواضحة . قبل أن نجلس كان خاطبي يصل إلينا .. وأحسست بمزيج من السعادة . والهدوء .. وجلسنا ثلاثتنا . لقاء .. كأنه لم يكن الأول .. وتآلف يصعب على من يراه أن يصدق بأنه ابن لحظته .. كأن السنين قد ربطت بيننا ... وأن خلية

من الأحداث قد مرت في تلك السنوات البعيدة فحققت هذه الألفة .
لا أدري كيف مشينا ! وكيف جلسنا على المقاعد الدائبة .. لكنني عجبت
من نفسي .. لماذا لم أنظر لوجه حبيبي ووجهها وهما يتصافحان ؟ ألم أكن قد
قررت أن أكون رجل مباحث وأرصد الحركة .. واللمسة ؟ هل انتهى الشك
وذابت الغيرة بمجرد أن رأيتهما ؟ ولماذا عانيت كل ما عانيته وأنا على يقين من أنه
يحبني .. وأتني شمعة مضيئة في عينيه .. ووردة لا تطلها سن اليأس ، أتربع
عروساً في قلبه .

ويقولون للسفر فوائد .. عشر أو عشرون . وأنا لا تهمني هذه الفوائد ..
فقد جئت من أجل شيء محدد ... من أجل حقيقة أكتشفها ، وها هي الآن
أمامي .. أراها .. وألمسها لمس اليد . صديقة حبيبي .. وقد أصبحت منذ الوهلة
الأولى صديقتي ...

ها هو الشك يتبدد .. وها هي السحابة السوداء تنزع نفسها من بيت
أفكاري .. وتترك المكان صافياً .. عذباً كيوم ربيعي ..
لماذا عذبت نفسي كل تلك المدة .. رغم حبي له . وثقتي الصادقة بحبه لي ؟
ولماذا تصورت أنه لا يمكن أن تمتد جسور صداقة بين رجل وامرأة إلا وأن يكون
للشيطان دوره في بناء جسر من جسورها !

هذه الصديقة التي اثارت الاطمئنان في نفسي منذ الوهلة الأولى .. هل
أكره أن تنال حقاً إنسانياً ؟ أن يكون لها أصدقاء حتى وإن كان حبيبي واحداً
منهم ؟؟

يرق سرور عجيب في داخلي .. عابثني وأثار النشاط في كل كياني ..
فأحسست لحظتها فقط بقيمة السفر .. وفوائده الألف التي أضيفت لها اليوم
فائدة اكتشاف جديدة .

وعلى شفتى المبتهجتين التمت الدعوة التى وجهتها :
- ألن نخرج ؟ الجو رائع .. وجميل ..
وفى داخلى كنت أؤكد بأن الحياة كلها أجمل .. وأن الراحة سبيلنا لتذوق
هذا الجمال ..
وقفنا ..

كان خاطبى فى الوسط .. ففتح كفيه .. وبسهولة كان كفه يرتاح فى كف
الصديقة الذى لم يكن يحمل سوى بصماته ، بينما لم تكن الطريق سهلة إلى كفى
الملء بالخواتم ..

سحبت كفى . إندهش .. لكنه عاد وابتسم ابتسامة رفرفت أجنحتها بفرح
وهو يرانى أنزع الخواتم واحداً .. بعد الآخر . ولم أبق سوى الدبلة التى لن تترك
مكانها إلى الأبد ..

وكانت نظرة من عينيه الخائيتين تؤكد لى ذلك .

فهرس

٥	نظرة لها أصابع
١٣	بعض الأشياء لا تنتظر
١٨	الحب له صور
٣٥	حاجز النار
٤١	الجدران ... تتمزق
٤٧	الرءوس إلى أسفل
٥٧	لا خبر... لا ...
٦٢	الملص
٧٢	حين تبكى المدن
٨٠	الاشاعة
٨٩	الطاسة
٩٨	لعبة في الليل
١٠٦	مسافرة .. على جناح الأحلام

رقم الايداع : ٨٧/٢١٥٤
الترقيم الدولي : ٧ - ٠٧٤ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة : ١١ شارع جوارح - هاتف : ٧٧١٨١١ - ٧٧١٥٧٨ - بريقيا : شروق - تلکس : SHROK UN 93091
بكرات : ص.ب. ٨٠٦٤ - هاتف : ٢١٥٨٥٩ - ٨١٧٧١٥ - ٨١٧٢١٣ - بريقيا : الشروق - تلکس : SHROK 20175 LE

